مؤلفات
يحيى حقي

٣

فكرة .. فابتسامة

مؤلفات يحيى حقي

فكرة فابتسامة

يحيى حقى

فكرة .. فابتسامة

المقالات الأدبية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦

سيّداتي، آنساتي

لعل أبلغ دلالة فى نظرى على قدر المرأة عندى أننى من أجلها وحدها لا ينقطع تحسرى أن معبد الشعر مغلق فى وجهى بالضبة والمفتاح، لا أملك الدخول إلى محرابه ولو من سلّم الخدم، فإنى أراها أسمى من أن أخاطبها بالنثر، حقها أن يصاغ لها قصيدٌ جماله من قبس جمالها، ورقته من وحى رقتها: حتى ولو كان الكلام لا يزيد عن «صباح الخير» أو «كيف الحال» — فتهمة التحامل على المرأة منفية عنى إذا وجهت إليها اليوم كلاما لا أطيق كتمانه، إنه منبعث من قلب جريح، وما جاءت طعنته إلا من يد هذه المرأة التى أجلها وأحبها إلى درجة الوله.

سأقدم لك بلا مبالغة لوحات شهدتها بعينى تقززت لها نفسى أشد التقزز، قوام كل لوحة امرأة، وهذا هو سبب بلواى:

اللوحة الأولى : فاتن

الست مسترخية على مقعد وثير ، كانت قد تناولت فطورها وأكلت حتى شبعت ، وقفت أمامها على بعد تحدده أنظمة الكورنتينات امرأة مسربلة بالسواد ، شاحبة الوجه ، كسيرة النظرة ، تحمل على ذراعها طفلة فى خرق رثة ، فى عينيها الثونو مسكنة البالغين ورعب راشد أبكم ، هذه هى الخادمة الجديدة التى جاءت تلتمس رزقها بالذل وعرق الجبين ، تبينت منها أنف الست رائحة غريبة عليها لا تعرف لها اسما ، ليست هى البخر ، أو زخمة العرق ، بل هى شىء يجمع بين رائحة الرماد ورائحة أوراق الشجر الصفر حين تنفث عطنها قبل أن تتفتت على الأرض ، قالت الست فى سرها : لابأس سأدخلها الحمام قبل أن تبدأ العمل ، وما علمت أنها رائحة خاصة بالجائعين والجائعات : لا تزيلها رغوة صابون الأرض كله ، بل أكله تملأ البطن .

استجوبتها الست استجواب وكيل نيابة لمتهم ، وحددت لها أجراً تصرف مثله وأكثر منه فى سهرة واحدة ثم أبت أن تتزحزح عنه (إذا كان يعجبك . .) قبلته الخادمة صاغرة ودعت بسعة الرزق وطول العمر ، فلما خيل للست أن الخادمة تستحق التجربة اعتدلت فى جلستها ولمعت نظرتها وهى تصوبها إلى الطفلة ببريق

خاطف من الغيظ : كيف يمكن أن يترعرع كل هذا اللحم الملظلظ وسط الخرق وعلى صدر مطبق ، ثم أشارت إلى آية الشذوذ بالسبابة وقالت :

— إيه ده اللى انتى شايلاه على دراعك ؟

ابتسمت عين الأم وأجابت :

هذه بنتى فاتن (لا عجب فنحن فى عصر السينما) عمرها ثمانية شهور : سابنا جوزى ومشى من قبل ما أولدها ؛

— إحنا عاوزينك وحدك ، شوفى لك صرفة فى بنتك ، أنا مش عاوزه وساخة فى البيت .

— ماليش حد ياستى ، ربنا يطول عمرك ويخلى لك أولادك .

— ده شغلك مش شغلى .

— مايهونش على أرميها عند واحدة من الجيران تخيب أملها ، أهى زيها زى غيرها .

أشاحت الست بوجهها وتناولت قطعة من الشكلاتة وأخذت تمضغها كأنما عز عليها أن يضيع لها وقت فى انتظار رد تملكه خادمة .

مدت الأم إصبعا نحيلا لأنه جميل إلى شفة ابنتها تحاول أن تداعبها لتبتسم وتمتمت لها بحنو عميق :

— لو كنتِ تموتى . .

اللوحة الثانية : لدغ أقسى من الصفع !

الست نحيلة ضعيفة ، لو تلقت على أم رأسها لكمية واحدة لاختنقت وحوحوتها بين حطامها : فى قلبها شعور غامض أن عدوا مجهولا قد سرق منها شيئا لا تعرف ما هو ، ولكنها من أجل فقدانه تعيسة فى حيـــاتها وليس فى حياتها ما يرهقها فى صوتها،مهما كان كلامها ، نبرة حنق مزمن مكتوم :صبته كله على رءوس سلسلة من الخادمات من مختلف الأعمار ، لا يزيد بقاء الواحدة عندها أكثر من أسبوعين ، لو سألتها عن أسمائهن لعجزت ، فما أنتج صب الحنق نفاده بل زاده اشتعالا كأنه من بترول يدلق على نار ، كان يكفى لإثارتها أن توجه نظرتها فترتد عن ثدى كائن أو قادم لواحدة من جنسها تشاركها السكن .

وأخيرا تابت عن استخدام النساء ونغصت حياة زوجها حتى ظفر لها من الريف بصبى فلاح يتيم لطيم ، تعهدت هى بتهذيبه وتعليمه : وتحملت الجهد الكبير الذى بذلته لأنها كانت تحسب فى سرها كم يبلغ فى خمس سنين مثلا الفرق بين أجر هذا الصبى وأجر خادم المدينة ، ولم يتبين إلا فيما بعد أنها سجلت لجهدها فيلما سينمائيا احتفظت به فى خزانة ذاكرتها .

ومضى زمن فإذا بالفلاح الجاف ينقلب إلى فتى متمدين ، ذكى النظرة حلو الابتسامة ، لا حد لصبره وقناعته ، تخلى عن لهجته الريفية ، وأصبح يتحدث وينكت كأولاد البلد ، يتكلم فى سياسة الدول ، ويعرف بالإسم صاحب كل صوت فى الراديو ، وحين طالت قامته خلعت الأسرة عليه فى يوم عيد بذلة قديمة ففرح بها وإن غابت قبضة يده فى الكم ونزلت حافة الجاكتة إلى الركبة : ولبسها وخرج إلى حديقة الحيوان وعرف طريقه إليها وحده :

وتوالت الأعوام وظن الفتى أن المولى سبحانه قد عوّضه عن اليتم والتلطيم بأسرة يلوذ بها ، ولكنه ارتكب ذات يوم حماقة لا أدرى ما هى ، فنودى عليه ، دخل ووقف ذليلا مكسوفاً ، سعادة البك يجلس ملوياً بجانب الراديو ، والست متحفزة قد قبضت على ذراعى المقعد ، وبعد صمت قصير فهم سعادة البك أن الكلام متروك له : لا حفظا للمقام ، بل ليورّينا شطارته أولا ومبلغ حماشته ، ولأن المدفعية الثقيلة لا تتحرك إلا وراء المشاة . وصرخ سعادة البك :

— ده شغل ؟ دى أصول ؟ يا مغفل ، يا طور ، يابهيم مش تعقل بقى ؟

تلقى الفتى بابتسامة خجلى هذه الشتائم لأنها فارغة وأقسم أنه تاب : فقال له البك :

روح غور من وشى . .

لهجة الرجل رغم حدتها تنم عن قبول التوبة ، واغتاظت زوجته لتساهله فتدخلت المدفعية الثقيلة ، بأن استخرجت الست الفيلم القديم من خزانته وأقبلت على الفتى تقول له من بين أسنانها وجسدها يتقلى فى مقعدها :

— جرى إيه يا واد ؟ انت اتفرعنت قوى . . لابس بدلة وعامل افندى وعرفت سكة السينما ، انت ياواد نسيت ولا إيه ؟ نسيت يوم ما جيت لنا ، القشف لغاية فخادك زى اللحاف ، راسك قرعة ومزنخة وبتنز ، عينيك معمصة ، القمل سارح على جتتك اللى بالبلا ، جلابيتك مقيحة ما فيهاش حتة على بعضها : جاى لنا من ورا الجاموسة والجاموسة كانت تفهم أكتر منك ، مدنّاك وعلمناك وبقيت بنى آدم ، وبعد الفلس واللضى بقى فى جيبك فلوس تشخشخ بها ، وما تنامش ليلة جعان ولا طفحان مش مليان دود . .

تمنى الفتى أن تصفعه بكفها ولا تذله وتهدم كرامته بلدغ العقرب ، أجابها بعين منكسرة :

— أنا برضه يا ست خدامك أنا مش ناسى وكل واحد يردن لأصله .

اعتراف بالهزيمة كسا وجهها بزهو الانتصار ، وما أدركت فى جبروتها أن لسان هذا الفتى الجاهل قد نطق بحق يدمغها قبل أن يشمله .

اللوحة الثالثة : خمسة صاغ

أم محمد الغسالة ولية معصعصة الساقين والذراعين ، تجرى على رزق ستة من العيال أيتام الأب ، حين تنزل من على الوابور صفيحة الماء المملوءة لتم عينها يتقوس ظهرها وتزم شفتيها وتتفحص موضع قدميها لتحكم وقفتها وترفعها بخزقة تشرخ الحلق لئلا تخرق جدار البطن : ثم تجلس أمام الطست وتظل يداها تدعكان بلا انقطاع من مطلع الصباح إلى ما بعد الظهر، لها تحدثها بسبب وش الوابور هيئة الصماء : نظرة شاخصة وصوت مرتفع النبرة ، غسيل أم محمد نظيف كالشمع ، الزهرة مضبوطة ، لم ينضح منها ثوب ملون على ثوب أبيض ، ما ضاع منها منديل ولا سقط فى الطريق قميص، ولكن لأم محمد عيباً غريباً لم تنعقد المودة بسببه بينها وبين ستات البيوت ، ينظرن إليها نظرتهن إلى امرأة مريوحة أو مخبولة ، عيبها أنها اذا جلست أمام الطست حلا لها أن «تعدد» كأنها فى مأتم، بنغم حزين يفتت الصخر ، مأساة كل ثاكلة وهى تنطق من فمها .

اتفقت الست مع أم محمد على أن تغسل لها كل يوم اثنين لقاء جنيه واحد فى الشهر ، هى المتكفلة بالغسيل ونشره وجمعه

وتطبيقه وفرز ما يرسل للمكواه ، ومضى على الأبونيه أكثر من سنتين ، لم تخلف قط موعدها ، أجرها غير مرتبط بأسعار الأكل والشرب ، الجنيه هو هولم يتغير ! .

وبجيء أم محمد لهذا البيت دليل على أن الست تستخدم رجلا لاامرأة وحدث أن خرج خادمها ولم تجد بدله إلا صبية صغيرة ، وبعد يومين اثنين حين رأت الست أن البنت جالسة تستريح لحظة فرزتها من مكانها وطلبت إليها أن تفعل شيئا :

— اغسلى لك مندلين ولا شرابين .

فجمعت البنت الخائفة كل الجوارب والمناديل وغسلتها أحسن غسيل

فى يوم الاثنين التالى صبرت الست على أم محمد حتى أتمت غسيلها وقبل أن تنصرف استوقفتها وقالت لها :

— شوفى يا أم محمد .. من هنا ورايح ح نشيل عنك المناديل والشرابات ، وعشان كده ح نخصم من أجرتك خمسة صاغ .

اللوحة الرابعة : عشرة كيلو شايله عشرة كيلو

لن أصف لك هذه الست: أنت تراها مثلى فى المترو والأتوبيس ، ينالنى منها — لا من رجل — أقسى زغد لتسبقنى فى الطلوع وهى ورائى ، تفعصنى فى ركن لتنزل قبلى ، هى سيدة ككيس القطن ،

الأحمر مشلفط ، والكحل سايح ، على صدرها بروش لايدل كبر حجمه إلا على تفاهة ثمنه : يارب .. كيف يمكن أن يوحى وجه امرأة بمثل هذا الغلظ والجمود ، تجلس أمامي وتأخذ تنظر إلى الخلق كله - لا إلى وحدى - شزرا وبحنق شديد ، حينئذ أتمنى أن أكون أنا المفتى وتعرض على قضيتها لأكتب بالثلث على الملف «حلال فيها الإعدام » هذه الست التى لو مالت على جدار لهدمته لها ابن يزن عشرة كيلو ، زئبق لايستقر ، يخوض أجسادنا بحذائه ليصل إلى الشباك . الست لا تحمله ، عيب على الشياكة والأناقة ، أتدرى لمن تتركه ؟ لطفلة صغيرة لايزيد وزنها هى الأخرى عن عشرة كيلو ، حقها أن تدلل على الركبتين وتضم الى صدر وتنام فى حضن وتكون لها عروسة تلعب بها ، أراقبها وهى تنوء بحمل الصبى ودعكه لها وفركه ، فلا أرى فى عينيها أقل أثر للهم ، بل تحوط بذراعيها هذا الشمشوم الصغير كأنها هى أمه ، والغريب أن يد الست تمتد أكثر من مرة لتعدل ثوب ابنها ولم أرها قط تمتد لتربت على كتف خادمتها وتصبرها أن المشوار قصير .

وإذا جاء الكمسارى تقول له بالفم المليان « تذكرة ونص » ولو كنت مكانه لقلت لها :

- النص لك أنت لأنك رغم ضخامتك لست إنسانة كاملة ، والتذكرة لهذه الصبية لأنها تقوم بعمل يعجز عنه بعض البالغين ..

وفهمت من نظرته إلى وأنا جالس مفعوص أنه يقصدنى أنا .

(« المساء » ، ١٩٦١/٥/٢٩ : ص ٦)

أنا خـــرمان

هذه المخلوقة الضئيلة الحقيرة التي لولا ضعف الانسان وحماقته لما قامت لها سوق رائجة تتعزز فيها وتتبغدد علينا ، هذه الدودة الغليظة ، المفرومة المصارين ، المحشوة خبثا ، تتلفع بطرحة بيضاء وفي قلبها أختل السموم ، هذه الطاهرة وهي جثة ، تصبح نجاسة عفنه تلوث كل شيء تلمسه إذا دبت فيها الروح ، وروحها من نار جهنم ، هذه السيجارة ماذا فعلت بأناس هم مع الأسف ولسوء الحظ كرام أهل حياء ، فإذا بحصن حياتهم المنيع لاينهدم إلا أمام سحرها .. أعرف موظفين لهم رغم ضآلة مرتباتهم يد عفيفة ، تقطع ولا ترتشي ، ومع ذلك يغضون البصر وأنت تترك على مكاتبهم علبة السجائر كأنك نسيتها ، لو دفعت لهم ثمنها لبصقوا في وجهك ، أحس وأنا أوليهم ظهري بغصة مريرة طالعة نازلة كالمصعد بين حلوقهم وقلوبهم وهم يلعنون في

سرهم هذه السيجارة التى أذلتهم ويلعنون معها شاربها .: الذى هو أنا وهذا الصديق الحصيف المتزن ، صاحب الرأى الثاقب يعطيك الجواب القاطع الفاصل إذا استشرته ماذا تفعل بزوجتك حين تنكد عليك ، أو كيف تدبر أمرك وممن تقترض إذا هل آخر الشهر أو موعد قسط المدارس ، ومن هو أمهر وأرخص ترزى يقبل التفصيل بالتقسيط والقماش من عنده ، ومن أين تشترى خزين المسلى من منوف أم من ميدان المحطة ، هذا الصديق الذى يحل هذه المشكلات العويصة كلها ينبهم عليه الرأى وتركبه الحيرة وأنت تعزم عليه بسيجارة فيقول لك وحمرة الخجل تجالل وجهه : أنه لا يدخن عادة (المعنى . أنه لا يشترى السجائر) وإنما يدخن أحيانا وينطق لك بكلمة « أحيانا » على نحو تفهم منه أن هذه « الأحيان » لا تشملك ، فيتملق أملك بهذا الشك وبأن القرعة قد تأتى على غيرك ولكن من قبل أن تبلع ريقك وتطمئن على أن مقطوعيتك من السجائر فى يومك لن تنقص وأنك ستنام بدون تقلب طويل على الجنبين ، تدرك فجأة أن الطوبة جاءت فى المعطوبة ، إذ سرعان ما يضيف هذا الصديق بلهجة كلها ود واعزاز ، ويده تمتد بحياء ، تمسك عرقها بجهد جهيد ، قائلا إنه اكراما لك ، سيقبل منك سيجارتك هذه المرة (والمعنى أننى ان آخذ غيرها الآن فاطمئن وليس من الضرورى كما سمعت أن آخذ سيجارة غدا ، فتشجع واعزم بها علىّ ولا تخف) :

يظن أننى سأنسى الحديث الشريف : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

تقول فى سرك وأنت تتعجب : كيف يكون فى سلب سيجارتى إكرام لى ؟ الله الغنى عن هذا الإكرام . .

ثم يمتد الحديث ويحلو فأستنيم وأعزم عليه بسيجارة أخرى ، فيطيل معى الجدل فى القبول والرفض ، ثم ينسى المفهوم الصريح الملفوف كلامه ويأخذ هذه السيجارة الثانية ، وحجته أن الجدل المتعب لن ينتهى إلا بهذه التضحية من جانبه . .

وإنما هو والشهادة لله لايزيد قط على السيجارتين ، ومهما حاولت إرغامه على شرب ثالثة ، فإنه يرفض بلهجة تسترحمك كأنها تقول لك : امسك على بقية حياتى .

وأرقب هذا الصديق ، فإذا به يفعل مع غيرى مثل ما يفعله معى ، كأنه مكلف بتوزيع إكرامه بهبالة على كل من يعزم عليه بسيجارة ، وتكون النتيجة أن عدد السجاير التى يستهلكها هذا الصديق الذى لا يدخن عادة يزيد على عدد سجاير مدخن مزمن انخرب بيته مثلى .

أحس أن هذا الصديق الكريم . . صاحب الحياء الأصيل يكره نفسه إذا آوى لفراشه ، وزاد سعاله من خلط ، بين البيلمونت والبحارى والماتوسيان ، إنه يقسم أنه لن يمد يده من بعد إلى سيجارة سفلقة ولو من أعز الحبايب . . لكن ابق قابلنى . .

هذا تكتيك شائع ، لعلك تعرفه أنت أيضا ، وهناك تكتيك آخر : هو عكس التكتيك السابق على طول الخط ومع ذلك ليس بالأقل منه نجاحا ، أستاذ هذا التكتيك صديق آخر يفوق صديقنا الأول فى حياته ، أدخل عليه فى مكتبه ، فلا أكاد أجلس حتى يخرج من جيبه ، أو من درج مكتبه علبة سجاير صغيرة ، ويمدها نحو صدرى ، ويحلف على أن لابد أن أشرب من عنده سيجارة ، ثم يفتح العلبة فلا أجد فيها إلا سيجارتين وليس غير ، يعطينى واحدة بفرح شديد ويأخذ واحدة .. تقول له « خل عنك ، ليس عندك سجائر » فيقسم لك أنه أرسل فى شراء علبة ، وإنها فى الطريق ، ونفرغ من شرب السيجارة فى غمضة عين ، ويطول الحديث ويحلو ، فأخرج علبتى وأعزم عليه بسيجارة ، فيأخذها أخذ عزيز مقتدر ، فهذه واحدة بواحدة . . فلا فضل لأحد على الآخر ، ولكنى أنظر إليه وأنا أعزم عليه بعد فترة بسيجارة أخرى ، يأخذها أيضا باطمئنان ، ما دامت علبته الجديدة ستهل علينا من قريب ، وهذا شأنه مع الثالثة والرابعة والخامسة ، تفرغ علبتك أو تكاد وتقوم . . وعلبته هو لا تزال فى علم الغيب . . !

أنا واثق أنه يفعل هذا مع كل زواره ، حتى كدت أظن — وبعض الظن إثم — انه يشترى سجائره فرطا ، ويعد لكل زائر علبة بها صنارتان اثنتان .. وأعلم علم اليقين أن هذا الصندوق لاينام الليل من شدة كربه ، وخجله من عجزه عن سداد ديونه ، لعل هذا الإرهاق النفسى هو مرد تكتيكه العجيب فى شرب السجائر .

ولى صديق آخر ، أقول لك فوراً وبافتخار أنه من الأثرياء حتى لا تظن أن جميع أصدقائى غلابة فقراء ، ما طلبت منه قرضا فكسفنى ، يدعونى مرارا للغداء والعشاء ، ولكنه يعاملنى أحيانا معاملة لا أدرى هل تجعلنى أزعل منه أم لا أزعل، إنه يعلم أننى من كبار المدخنين ، ويرى نوع سجائرى ، هى لاترسو ولا بريموبل سكوندو ، إذا قدمت له سيجارة رفضها بتأفف لامجاملة فيه، ثم بعد هنيهة يخرج هو من جيبه علبة سجائر لاكي ستراليك يضغطها فى قبضة يده ضغط كماشة حتى يكاد يفعصها أو يعصرها، ويميل ثقبها نحوى بتردد شديد وبزاوية أقل من ١ ./. ، يده تتقدم وتتأخر، وجفونه ترمش ، هى حركة من يريد أن يشعل بعود ثقاب وابور بريموس انطفأ وزمجر وانعقد دخانه ، كأنه يقول :

« استذوق.. لك سجائرك ولى سجائرى» عجيبة هذا الرجل.. تهون عليه غدوة أو عشوة ولا تهون سيجارة واحدة.. أكاد أحيانا كثيرة أهم بمد يدى لأنتزع سيجارة من الكماشة، لإغاظته من ناحية، ولرده من ناحية أخرى إلى أصل معدنه فى الكرم والإنسانية والذوق، ولكن عجبى من مسلكه يشل يدى .

أظرف هؤلاء الناس جميعا . صديق صريح كل الصراحة ، انه يكره النفاق واللف والدوران ، لذلك عقد معى اتفاق جنتلمان تعهد فيه بألا يأخذ منى فى اليوم الواحد إلا سيجارة واحدة لامفر منها ولكن لاثانية لها ، فأراحنى مسلكه كل الراحة ، وخلص لقاؤنا وحديثنا من كل حرج أو مؤامرة ، وأشهد أنه يحترم هذا

الاتفاق بدقة وأمانة، ولا ينكر أنه عقد اتفاقات مماثلة مع عدد من بقية أصدقائه ، انه يذكرني بمحمد على . . حين نزع من لحية الدفتردار ، وهو يجالسه شعرة واحدة، ثم أتبعها بعدهنيهة بشعرة واحدة أخرى، تعجب الرجل المنتوف اللحية فى سره من مسلك الباشا ، وظنه نوعا جديدا من نزواته فى الممازجة ورفع الكلفة، نوع سخيف . . ولكن لاضرر منه . . وليس من ورائه عذاب، فإذا بالباشا يقبض على لحية الدفتردار فجأة ويشدها بعنف، فصرخ الرجل صراخا عاليا من شدة الألم، فابتسم محمد على وقال له: « هكذا يكون تحصيل الضرائب واحده .. واحده .. » .

لهفى على هؤلاء الضحايا جميعا، على بيوت كثيرة يسودها النكد من لوم الزوجة لرجلها أنه يصرف ثلث مرتبه فى شرب الدخان، فيقول لها انه يفعل هذا من شدة ضيقه بلومها . . من أى طرف تنحل هذه الحلقة المفرغة . .

لهفى على باعة الصحف ، تبرز عظام صدورهم من فتحة جلابية لا تتغير شتاء وصيفا ، تتقد فى عيونهم نظرة متحفزة ، كنظرة الوحش الضارى ، يلوذون جماعات . . جماعات بفنار تختبىء فتيلته دون هبابها داخل جراب علبة سجائر فوق لمبة سهارى فى كشك بائع سجائر ، فى رأسهم حساب لا ينقطع ، فإذا تبين لهم أن مكسبهم قد بلغ ثمن سيجارة واحدة لم يذهبوا لشراء

رغيف، بل جروا جريا لشراء سيجارة واحدة فرطامن عند الفنار حينئذ تنعقد البلاهة والخدر على أجفانهم .. ولكن إلى حين ..

عجبي لهذا الأفندى الذى يندس بيننا فى أوتوبيس .. كعلبة السردين إذا أقمتها على حافتها ، فى يده سيجارة مشتعلة . . يظل يرفعها فوق الرءوس ويهبط بها إلى الركب، وفمه يلاحقها يلتمس قبلتها وهو غير عابىء بغيظنا ولا بخوفنا من الذهاب بسببه إلى الرفا..

عجبي لنسوة شريفات فى بلاد احتلها العدو فى أوربا، تحملن الجوع بإباء وشمم ، ورفضن مد اليد من أجل لقمة ، ثم فرطن فى عرضهن من أجل سيجارة واحدة من يد العدو .

عجبي لكمسارى يتركنا نتقلى فى عز الشمس . وهو يزاحم الزباين أمام بائع سجائر مشككاتى ليخطف منه سيجارة هى السر الباتع فى جريان ريق زمارته بعد جفاف، يتنازل للسائق مكرها عن شفطة أو شفطتين سدادا لدين سابق محسوب بعدد الأنفاس . .

كل هذا من أجل شيء دخل حياتنا وسيطر علينا، يكفى للدلالة على سلطانه أن اسمه أصبح رمزاً لأجر القواد ، وتحليلا للرشوة : حق الدخان . .

(« المساء » : ١٩٦١/٥/١ ، ص ٦)

أينَ تأكل اليوم ؟

من أكبر النعم التى أحمد عليها ربى اننى آكل فى بيتى من طهى زوجى ، حتى طبخة العدس تبقى لذيذة فى فمى ، ولكن الإنسان الغشوم لا ينجو من البطر ، إنه يستهين بالنعمة ويفسدها ، فأقرر أحيانا أن آكل فى البلد وحدى ، على حل شعرى ، فلا يتأخر على عقاب البطر ، وأقع فى ورطة عويصة : أين آكل ؟

لست من كبار الأغنياء حتى أقصد أحد هذه المطاعم المبجلة التى تجد فيها خادما فى زى بطل من أبطال ألف ليلة وليلة يستقبلك باحترام ويفتح لك الباب ، فاذا جلست أحاط بك كالنمل خدم آخرون ، هذا مكلف بإحضار الماء وحده ، وذاك مكلف بإحضار السلاطة وليس غير ، وثالث مضطرب لا ندرى ما عمله ، وشيخ المنصر جرسون أجنبى له عين فارزة كعين الصقر ، وحتى لو ذهبت تغسل يديك وجدت رجلا

أو صبيا غلبانا محكوما عليه بالسجن المؤبد داخل مرحاض ، يناولك بأدب منشفة وينفض لك ثيابك ، فإذا لم أشأ أن أكون صدغا قليل الحياء زاد البقشيش وحده على ثمن أكلة ، كان أدنى بقشيش فيما مضى قرش تعريفة ، أما الآن فلا بد من قرش صاغ ، يرضى به صبي المرحاض وهو يرمقه وإن زعم تجاهله وأنا أرن به على الطبق تأكيداً للدفع وعدم الزوغان ، ينبغي أن تضاعفه للسقاء وتضاعفه ثلاث مرات لحامل أطباق السلاطة ، أما الجرسون الأجنبي فابتسامة الشكر عنده لا يقل ثمنها عن شلن كامل وبقية قروش الفكة ، هذا علاوة على ١٠ ./ يحسبها على الفاتورة التى لم أستطع قط أن أراجع أرقامها من شدة خجلي ورغبتي أن أكتسب صفة الجنتلمان فى نظر أصحاب هذه المطاعم ، وأخرج فى كل مرة من المرات النادرة التى أذهب فيها لهذه المطاعم وأنا أسأل نفسى ، كيف وأنا عامل حسابى على أن أصرف خمسين قرشا على الأكثر قد دفعت ما يقرب من جنيه كامل .

وهناك شيء آخر يغيظني فى هذه المطاعم . الطبق الذى أمامى اسمه فى عرف المنطق وعند جميع الناس لحمة وبطاطس ، ولكن اسمه على القائمة : صدر حمل رضيع متبل على طريقة فينيسيا مع حضارات الموسم بالزبدة صوص مادير ، انتقامى الوحيد من هذه المطاعم أننى أدس خلسة فى جيبى كل ما أجده أمامى من أعواد تسليك الأسنان !

إذن فلنهرب من هذا المطعم أو هذه المصيدة ولنهبط من القمة إلى السفح ، سأذهب إلى محل ساندويتش ، المفروض أن الساندويتش هو رغيف ، ولكنك ستجده لقمة ، وهذا الطرشي الذي يأتي مستخذيا منهريا في طبق صغير مبلل ، امتحان عسير لحاسة المذوق فشلت فيه كل مرة ، فلا فرق عندي بين طعم الجزر من اللفت من الخيار ، لا يبقى في فمي إلا لسعة الخل ، حين أذهب أطلب اثنين من الساندويتش أحسبهما وجبة كافية ، وإذا عملهما الوحيد هو إسالة الريق وفتح الشهية فأطلب اثنين آخرين ثم يصعب على أن أترك بقية الطرشي فأطلب خامسا لآخذ بحق حلفة . الثمن زاد عن ثمن أكلة رسمية بشوكة وسكينة وفوطة . ثم انني أفرغ من الأكل في غمضة عين ، مع أنني كنت أطمع أن يسرق مني ساعة الهجيرة ، فأخرج وأنا حائر ، لا يزال على موعد حفلة الساعة الثالثة في السينما ساعة ونصف فأقصد محل حلواني أو قهوة ، ويكون لثمن الأكلة دلاديل لا بد منها .

لنذهب إلى محل آخر هو أيضاً في السفح ، مطعم فول وطعمية على الأقل لاداعي لوجع الدماغ وتعب الرجلين ، لن تسير خطوتين في أي مكان في القاهرة حتى تجد مثل هذا المطعم وكل واحد صورة طبق الأصل من الآخر : نصف باب على يمينه أو يساره لوح زجاج يزينه من ورائه صف ضئيل من علب السردين ،

تنزعمها حبة كبيرة من الطماطم والبائع النعسان واقف وراء قدرة فول من النحاس « وأنت حر أن تعتبر كلمة النحاس وصفا للقدرة أو الفول » .

الصمت عادة يخيم على الدكان ، المفروض أنك تدخل وتأكل وتخرج وكل مافيك ينطق بأنك من المعذبين فى الأرض ، ليست مطاعم الفول محلات فنطزية وفرفشة ، بل هى مداود تبن داخل حاصل ، وتدخل وتميل رأسك وتمضغ وتملأ بطنك ثم تخرج للدنيا من جديد « إننى أحب الفول المدمس ، إنه نعمة كبيرة فهو غذاء دسم شهى رخيص ، طبقه من أنظف المآكل حين يكون جيبى لا يعينى على المطاعم الهايلايف ، ولكن ما هذه الفوطة السوداء فى يد البائع النعسان ؟ ماهذه الشوكة الصفيح المغسولة بالماء لا بالصابون ؟ ما هذه الشطة التى تحتاج لنصف كيلو منها لتحس بلسعتها ؟ ما هذا الملح الأغبر المتبلل بعرق أصابع مصبوغة بالنيكوتين ؟ .

كل هذا يهون ولكنى أقسم لك أيها القارىء العزيز اننى رغم حبى للفول المدمس يحدث لى مرارا أن أذهب مجدا مشتاقاً لمطعم فول فإذا هللت على بابه صدتنى صفعة قوية ، هى هذا الحزن الشديد ، هذا الانقباض المخيف هذا الوجوم المرعب .. انقلبت الصفعة إلى بصقة فى وجهى، أشعر أننى لو دخلت سأحمل كل هموم الدنيا على رأسى.

هناك مطاعم فول شعبية لها أسماء لمعت فى عهد مضى ، الفول فيها أجود وأنضج لأنها لا تزال تدمسه فى قدر من الفخار فى موقد حمام ، لا فى قدر من النحاس على وابور بريموس ، أتمنى أن آكل فيها ولكنى لا أستطيع لا لشىء ، إلا أنها تشبه عربة أتوبيس من شدة الزحام واختلاط أذرعة الناس بعضها ببعض لأنها تبيع للمارة أكثر مما تبيع للزبائن الجالسين . فهل أهرب من أتوبيس لأقع فى مطعم فول ؟.

كان لى فى عهد مضى مطعم فول بجوار سيدنا الحسين ، لا يزيد حجمه عن مترين فى مترين ، ثلاث موائد لا غير وكان صاحب الدكان رحمه الله رجلا فكها يضاحك الزبائن ويعابثهم بل ويشتمهم أحيانا فكنت به سعيداً .

وتشتاق نفسى حين آكل فى البلد على حل شعرى أن أملأ بطنى بلحمة الراس وفتة كوارع ، تحريشاً للمعدة فيما أزعم ولكنى لا أستطيع أن أنزل مناى ، فلن آكلها فى الطريق من الباعة السريحة الذين أصبحت كلمة « يا جابر » ماركة مسجلة لهم وحدهم ، ليس لغيرهم مثل هذا القفص الأجوف المستدير يبلغ قامة الرجل ، إنهم يبيعونه باردا فيتحرش بالفم ويتلكع به : ثم انهم مهرة فى تجزيد اللحم حتى تصبح جمجمة الخروف أمامى فى شدة ، من بياض كالح هى أبلغ شىء

عندى فى التذكير بتراب المقابر ، أما المطاعم التى تبيع لحمة الراس فنوعان ! الأول يقلد مع الأسف مطاعم الطبيخ فلا أجد فيه جو المسمط الذى ينبغى أن يشبه جو حمام تركى والثانى قديم أصيب الزمن عنده بالشلل ، دخلت مسمطاً من هذا النوع فى ساعة متأخرة من وقت الغداء فوجدت الصبى مشغولا باعداد وجبة العشاء ، وكان يقشر البصل والثوم بين ساقى على الأرض . فكانت ، أكلة بدمعة جرت على الخدين .

ماذا بقى أمامى بعد ذلك . بقى الوسط بين القمة والسفح ، وأنت تعلم أن لكل قاعدة استثناء ، فالقاعدة التى تقول إن خير الأمور الوسط قد تحقق فى مطاعم الوسط استثناؤها ، انها تقدم لك قائمة من ١٦ صفحة على الأقل فيها كل ما يخطر ببالك من تفانين الأكل ، ثم يقول لك الجرسون بدون اعتذار وهو يشن بأنفه أن الأصناف الموجودة هى التى أمامها علامة فإذا عددت العلامات لم تزد على عشرة ، لا أريد أن أتكلم عن ضآلة المقدار الذى يأتى لك فى الطبق ولا عن نوع المسلى ، وجليطته فى الحق ولا رائحة الزفارة فى الكوب والأطباق ولا دهننة مقبض السكين أو الشوكة ولا صبرك طويلا من قبل أن يأتى طلبك حتى تأكل نصف الرغيف حافاً وإنما أحدثك عن الأصناف العشرة ، فقد حدث لى وأنا ذاهب أغسل يدى أن مررت فى دهليز عتيق فيه نافذة كالطاقة تفضح مطبخ المطعم فلم أجد فيه إلا أربع حلل ضخمة واحدة بها

بطاطس محمر وأخرى بها بسلة مقلية وثالثة بها هبر من اللحم ورابعة بها مرق أحمر ، ومن ضرب إحدى هذه الحلل فى اخواتها يخرج لك بقاهرة قادر حاصل كل طبق تطلبه . . ليس هذا بطبيخ . . وإنما هو تلفيق !

فأنت ترى مبلغ حيرتى حين أريد أن آكل على حل شعرى خارج بيتى ، أتدرى ماذا أفعل حينئذ ؟ أقف فى الطريق وأدعو الله سبحانه أن يمر بى صديق مريش يعزنى ويعزمنى أن آكل معه على حسابه ، ولو فى مطعم فول ، ولو فى مسمط فإن دفعه للثمن ولا أقول صحبته سينسينى كل تأفف بغيض لا تقوى على مغالبته نفسى الضعيفة المترددة .

(« المساء » : ١٩٦١/٤/١٧ ، ص ٦)

الوصايا العشر في سوق الخضار

دهشت حين دعاني صديقي لمأدبة غداء عنده، إذا كنا في أواخر الشهر، ولا أعلم أن له صبيا آن أوان ختانه، ولا سمعت أن جاء لبنته خاطب، حتى ولا من الصنف الذي يكتب المذكرات — ياساتر استر — في ليلة الدخلة .. لعل صديقي تبين في نبرتي هذه الدهشة فاعتذر بأن المأدبة احتفال بنجاح ابنته بتفوق في شهادة التدبير المنزلي .

وصلت إليه قبيل الظهر فوجدته قلقا . وقال :

— من سخافتنا أن الرأى اتفق بيننا — استكمالا للفرحة وبرهانا على صدق النجاح — أن تتولى بنيتي الطبخة من طقطق لسلام عليكم لاتستجدى من أمها نصيحة ولا تفرض على الخادم مساعدة ، فتبدأ بأن تنزل للسوق لتشترى بنفسها اللحم والخضار والفاكهة ، وقد

خرجت منذ أكثر من ساعتين وهاهى لم تعد للآن ، فمتى تطبخ ومتى نأكل ؟ أدعوناك لغدوة أم لعشوة ؟

وبعد قليل دخلت بنته وهى تلهث ، محملة بالأكياس واللفائف ، وجهها مشرق بسعادة كبيرة ، ولكنى لم أر قبلها سعادة تنقلب فى غمضة عين إلى غم وحنق ، أرادت — افتخارا بشطارتها — أن تكشف لنا عن مشترياتها .

ففردت لنا أولا لحافا أغبر يشبه نسجه هذا الورق الذى تصنع منه نعال الأحذية هذه الأيام ، داخله هبرة جيلاتينية منكمشة ، كأنها سقط جنين مكسوف من عاهة تعرت أمام الناس ، يختلط فيها الدهن بالشغت بعروق تفوق أجود أنواع المطاط ، ووسط العظام المشوهة بقسوة قطعة لحم حمراء كفص زجاج يقلد الياقوت فى خاتم من فضة علاها الصدأ ، ومع ذلك فأشعته الكابية تضرب إلى الزرقة . قالت البنت بصوت خافت :

— عجيبة .. إنها كانت فى يد القصاب وهو يلويها كأنها اللوز.

ثم قدمت لنا قرطاسا معما بأربع ثمرات منتفخات لها إلى التين نسب قريب ، ومن تحت العمامة — طبقة بعد طبقة — زبل من حبات خضر جامدة كالحجر ، وأخريات مبقورة البطن قد لفظت بطارخها المتهتك كأنما داستها البراطيش ، تفوح منها رائحة حامضة ؛

دقت البنت على صدرها، وكادت الدموع تنزل من عينيها ،

وأقسمت لنا أنها حرصت بنفسها على انتقاء التين بيدها حبة حبة ، ووضعتها فى القرطاس ، فماذا جرى ؟ إنه سحر ولاريب !

قلت لصاحبي : لاتبتئس ! إن الذى حدث لابنتك الصبية الغريرة — يتكرر على يوما بعد يوم ، ولما رأيت أنى لست وحدى فى البلوى وأن هناك مثلى ضحايا كثيرين هم من أطيب الناس وأسلمهم طوية — والطيبة والخيبة من المترادفات ! — تمنيت لو عكفت على تأليف كتيب أسميه « عشر نصائح أخوية فى شراء الفاكهة المستوية » وأرتبه كما يلى بادئا بمسألة انسانية تهمنى أكثر من غيرها :

النصيحة الأولى :

إن كنت ممن لايؤمنون بأن الحسنة الخفية هى فى البيع والشراء فإياك أن تشترى الفاكهة وأنت جالس على القهوة من بائع سريح فإنى أهجر مراراً مقعدى فراراً من سحنة رجل جالس ومعه زمرة من أصدقائه أمام الأقداح على مائدة فوق الرصيف ، فيمر أمامهم صعيدى ، معروق ، جلد على عظم ، وعلى رأسه سلة من ثمار المانجو فيناديه صاحبنا ويبدأ فصاله ، ثم يتلقفه الآخرون ويتقاذفونه كالكرة وبعد محاورة تدوم نصف ساعة ، تهبط شقة الخلاف إلى قرش تعريفه واحد ، والبائع يذكرهم أنهم أسياد ، وهو أب له زربة من الأولاد ، فيكون جوابهم أنه مخادع مكار ، وأنهم غير أغرار ، كل هذا والحديث عن سهرات ومغامرات والأقداح طالعة نازلة :

النصيحة الثانية :

إياك أن تشترى الفاكهة من عربة يد فى الليل تحت المصباح اللوكس ، أصحابها لهم صناعة عجيبة فى رص جدران بضاعتهم بفاكهة جميلة تغرى السائرين ، وفى الحوش السماوى ثمار معطوبة تتستر بالظلال ،هى التى سيبيعونك منها مهما حاولت ،وهم لايكفون ليلا ونهاراً عن حكه بالأصابع وتلميمه بملابسهم القذرة وربما بريقهم أيضا ... الله أعلم .

النصيحة الثالثة :

إذا اشتريت من دكان فإياك أن يغيب الكيس عن نظرك لحظة واحدة إذ يتحقق فى ساحته بقدرة قادر تناسخ للأكياس إذا عز تناسخ الأرواح

النصيحة الرابعة :

إياك أن تؤمن بحيلة ثبت عندى مرارا فسادها ، بأن تبدأ فتلقى على البائع تحية رقيقة فيها استعطاف ، ثم تميل على أذنه فتهمس له أنك ستزيد فى الثمن قرشين من أجل أن يتركك تختار كما تشاء ، إنه سيرحب بك على الفور ولكن ثق أن الكيس الذى ستعود به إلى

دارك لن يختلف مقدار ثمرة واحدة عن الكيس الذى لم يدفع صاحبه هذه العلاوة التى هى أشبه بالرشوة .

النصيحة الخامسة :

إياك أن تؤمن بأن لقب « زبون قديم » يرتب لك على البائع حقوقاً تزيد على حقوق الزبابين الطيارى ، وما أصدق المثل البلدى القائل : اشمعنى جايب اللحمة مشغتة قال اكمن الجزار صاحبي .

النصيحة السادسة :

إياك أن تستعمل سلاح التهديد بأن تقول للبائع « إذ لم ترضنى فلن أعود إليك » فهو مثل العقلاء جميعا يدرك أن هذا هو أسخف تهديد ، ماامن مرة لجأت فيها إلى هذا التهديد إلا شعرت أننى أبوخ الناس .

النصيحة السابعة :

إياك أن تشترى من دكان قبل أن تدرس جغرافيته وتضاريس سواحله ، فى أغلب الدكاكين نوعان من الفاكهة ، واحد « بايت » ردىء للعبط والهلافيت ، وآخر جيد طازج مخبأ تحت الرفوف أو فى

الأركان ، كأنما البائع غانية لا يسرها أن تهب نفسها إلا للصائد الماهر .

النصيحة الثامنة :

أما فى بواكير مواسم البطيخ فإياك أن تشترى منه قبل أن تقرأ سجل المفاوضات بين مصر وانجلترا لأنك ستحتاج إلى مفاوضة صاحب الدكان مفاوضة طويلة بين الكواليس ، ثم التظاهر بتبادل العرض والطلب فى جلسة علنية ، وإذا تفضلت أيضا وقرأت تقارير مكتب مكافحة المخدرات فإنك تحسن صنعاً ، إذ ستعرف من أى جنس من الناس أصبحت ، وإذا ظفرت مع ذلك ببطيخة واحدة حلوة حمراء من كل ثلاثة قرع مواسخ فاعتبر نفسك محظوظاً .

النصيحة التاسعة :

إياك أن تقع مثلى فى تجربة لم يدفعنى إليها ذكائى وحيلتى بل تحريض صديق مخلص سامحه الله ، حكم بتغفيلى لأننى لا أشترى الفاكهة مثله من سوق الجملة ولا أطيل عليك — وصف العناء الذى لقيته ذلك اليوم من الزحام والصراخ والعرق والغبار والذباب ونتش أطراف ملابسى ، وحملت السلة إلى الدار فلما حسبت ثمنها ونفقة

نقلها دع عنك الوقت الذى ضاع منى — وجدته لايزيد عن ثمنها عند بائع الفاكهة تحت دارى .

النصيحة العاشرة :

وأخيرا إياك أن تخجل واقتد بأصدقائى حين أدعوهم للأكل عندى وأقدم لهم سلة فيها مختلف الفاكهة فلا يقنعون بصنف واحد أو بمقدار مهذب ، بل يأكلون منها كالمفجوعين ، لا استغلالا لى أو نكاية بى بل انتقاما فى شخصى الكريم من جميع بائعى الفاكهة .

أليس من العجيب أن شروة فاكهة — وهى مسألة هينة فى جميع البلاد — تصبح عندنا مشكلة عويصة مجهدة تحتاج إلى بصر وذكاء وصبر وخبرة كبيرة فى كافة وسائل الغش .

(« الأهرام » ، ١٩٦٠/١٠/١٨)

حجاب لدوام المحبة!

لست أدرى لماذا خيل إلى اليوم أن سرا باتعاً قد هبط على من كرامات أبو معشر عميد علم السحر والبازرجا وأول من تعلم — والعلم شيطانى طبعا — لغة شمهورش كورش ، ملك الجان ، فقد أحسست وأنا أهم بكتابة هذا المقال أننى مدفوع بقوة خفية لأن أعمل لك عملا ، لا تخف واصبر ، فلن يأتيك منى إلا كل خير ، العمل هو أن أكتب لك بالمجان حجابا لا لمقابلة الحكام ، فإنى أولى به لنفسى أن عرفت كيف أكتبه ، بل هو لضمان دوام المحبة ، وإياك أن تظن أنها محبة بينك وبين الجنس اللطيف ، فليست هذه يا أخى مهنتى ، وإنما الدوام محبة أبرك وأجدى ، هى المحبة التى تربط بينك وبين أصدقائك ، فلى فى هذا الموضوع تجارب غير قليلة بفضل ما ألقاه على يد أصدقاء لى حميمين ، يخلصون لى الود

يريحون أعصابى إذا جلست إليهم أتخفف من هموم الدنيا وأطلق نفسى على سجيتها ، فهم فى بعض الأحيان يقفون منى مواقف عجيبة تجعلنى أعانى ثورة عارمة مكتوبة وأود أن أطبق على زمارة رقبتهم من شدة الغيظ ، وأقسم أن عيونهم لن تكتحل بعد برؤية طلعتى البهية .

والغريب أن هذه المواقف ليست بذات خطر ، وليس من ورائها أذى ، ولا تنم عن لؤم أو مكر ، بل هى هنات وليدة الغفلة وحدها ، وإن كان لها قدرة هائلة على شعللة أعصابى وتسميم قلبى بالحنق والموجدة . والآن سأروى لك هذه المواقف بالتفصيل فقد تقع أنت أيضاً فى شراكها ، وبذلك تتجنب الإساءة عن غير إرادة إلى أصدقائك فيغضبون منك كما أغضب ، فما أظننى بدعة بين الناس .

* * *

الموقف الأول : لو كنت قلت لى

● يمضى على شهر كامل وأنا أبحث عبثا عن خادم ابن حلال ، حتى أزهق من الأكل المحفوظ فى العلب ، وتتكوم الأطباق الزفرة فى حوض المطبخ ، ويصبح التراب فوق البساط أكثر من تحته ، وألبس آخر قميص نظيف ولو نقصه زر ، وأسأل نفسى : ألا وسيلة للاهتداء إلى خادم يا عالم ؟

حينئذ أقصد صديقا لى ألجأ إليه ساعة الضيق لأفضفض إليه بهمى !

وان يكن فى قلبي أمل غامض أن أجد عنده أيضاً حلا لمشكلتى كأنى سأكشف عنده على ورقة يانصيب ، من يدرى لعلها تضرب .

فما أكاد أجلس إليه وأفتح فمى بحكايتى حتى يهب واقفاً ويضرب كفا بكف ويقول لى بصوت عال كأنه يعاركنى .

– يا خسارة ؟ لو قلت لى هذا بالأمس ، بالأمس فقط !

فيهبط قلبي إلى قدمي وأحس أن روحي تعلقت بخيط ينقطع أمام عينى وأتمتم بمسكنة .

– قسمتى كده !

فلا يرحمنى أو يتركنى لمصيبتى أهون شأنها وأنازلها وحدى ، بل أجده وهو الأبكم عادة تهبط عليه شحنة كبيرة من البلاغة والفصاحة ويهدر الكلام من فمه كالموج ، لا يحس أن كل لفظ له على وقع السوط الجلادى :

– لو قلت لى هذا بالأمس ، بالأمس فقط ، فقد سافرت أختى أمس لتلحق بزوجها فى أوربا فتنازلت وهى باكية عن خادمها لجارتها مع أنها تستثقلها ، كنت أنت أولى به ، يا خسارة ! خادم وأى خادم !

يتيم ، مقطوع من شجرة ، يودع عندك أجره ، طلوبة ، الباركيه كالمرآة ، لا يكتفى بمسح التراب عن النوافذ بل يأبى إلا أن يغسلها كل يوم بالليفة والصابونة ، يصل كالرعد إلى أقاصى الحى كله لا إلى الجيران النائمين وحدهم وقع عصاه على البساط وهو ينفضه من النجمة

على سور الشرفه كل صباح ، لايبالى بمن يمرتحته ، فى المطبخ البلدى أسطى ، وفى الأ لافرانكا بريمو ، فطاير إيه وحلويات إيه ، تصور انه عثر فى الطريق بالليل على محفظة بها مائة جنيه فقذف بها إلى أختى وهو يقول : حد الله بيني وبين الحرام !

(أسفت فيما بعد أنني لم أسأل صديقى ماذا فعلت أخته بهذا المبلغ) وكل هذا بكم ؟ بثلاثة جنيهات وليس غير ، يا مبارك .

أتأمل صديقى وأقول فى نفسى .

يارب ! هل فى تألق وجهه وبريق عينيه دليل على أن مبعث فصاحته هو تشف رخيص مكتوم من أن الفرصة النادرة قد فاتت على من تحت أنفى ثم هربت ؟ وهل مبالغته فى الاشادة بفضائل الخادم هو تفنن منه فى شكشكتى بالإبرة ؟

يملؤنى بالرغم منى حنق عليه ، وأنصرف وأنا أيأس الناس طرا ، لخيابتى وقلة بختى ، وأصمم من قبيل الانتقام لنفسى ألا أعود لزيارته .

الأمل فى حجابى أن يصونك من الوقوف مثل هذا الموقف من صديق يبحث عن خادم ، أو شقة خالية ، أو طقم سفرة خرج بيت ، فلا تفتح فمك بكلمة عن خادم أختك و تكفى على خبره ماجورا ، وتقول لصديقك الذى يغرق فى شبر ماء كلاما مثل هذا :

— الخدم ؟ هذه مشكلة سهلة ، إنهم من كثرتهم كالهم على القلب ، أنا واثق أن البواب أو البقال أو أحد الجيران سيجد لك خادما وافقك .

فهذا مما يريح أعصاب صديقك ، ويجعله يرضى عنك ، وإن شئت تحولت إلى كذب متعمد لا يضر ، فتقول له :

دع لى هذه المسألة ، فإنى فى ظرف يومين إن شاء الله سأجد لك ما تطلب ، اعتمد على .

وهذا كلام تهجيص فى بلاليص ، ومع ذلك يكون له أطيب الوقع على قلب صديقك أما إذا صدق كلامك ولامك على خلفك لوعدك فقل له : إنك كنت مريضاً ، أو إن أختك هى المريضة وأنك ذهبت للسهر عليها ، وسيكون من أسمج الناس ويحق لك أن تقاطعه إذا ذكرك أن أختك قد سافرت لأوروبا .

***

الموقف الثانى : رحت اشتكى له همى رجعت شايل همومه

● يركبنى فى بعض الأحيان هم ثقيل من أزمة مالية أو زوجية (ولا أدرى أيهما ألعن من الأخرى) ، فتضيق بى الدنيا على سعتها وأحار ماذا أفعل لكى أخفف وقع الهم على قلبى . وأخيراً تقودنى قدماى وأنا مطأطىء الرأس خافت الصوت إلى صديق على أمل أن أجد عنده بلسما لجراحى ، فما أكاد أجلس ويسألنى مالك وأقص عليه قصتى من مطلعها حتى يقاطعنى من أول سطر ويندلق على يشكو لى هو أشكالاً وألواناً من هموم عديدة هى فى نظرى سخيفة تافهة لا يقاس أفظعها بهمى ، ولكنه من أجلها يقيم الدنيا ويقعدها ، انه يكبب

الهموم تكبيباً يقطع أنفاسى فأحس أولا أننى بحت بواخاً شديداً ثم أحس بعد ذلك بإعياء مريع وأكاد أسأله أن أبيت عنده ، وعملاً فى النفور من صديق وأقول له فى سرى : يا أخى ! جئت أتخفف عندك من همى فتحملنى أنت همومك ، لو رأيتنى مرة أخرى فابصق فى وجهى؟

حجابى سيساعدك على كتم حاجتك للتشكى ، فتنصت إلى صديقك القادم إليك كما تنصت العجائز إلى الحلقات المسلسلة فى الإذاعة ، وتقول له إن أزمته مصيرها إلى فرج قريب ولا بأس أن تتمثل له ببيت مشهور وان يكن ثقيل الدم قد أبلته كثرة الاستعمال على ألسنة الشحاذين .

اشتدى أزمة تنفرجى قد أذن صبحك بالبلج

وإن تعلمت بعد ذلك أن الشكوى حقها لله وحده فقد أصبح حجابى كنزاً ثميناً ولا أطالبك بأجر عليه ؟

* * *

الموقف الثالث : خيار وفقوس

● انظر ماذا فعل بى أخيراً أحد أصدقائى واحكم أنت بنفسك وبذمتك هل لى الحق أن أغضب منه أم لا ؟

طب على ذات يوم ساعة الغداء والخادم فى أجازة مرضية ، وقد أعددت لنفسى بنفسى غداء من السردين والتونة والجبن والحلاوة الطحينية وأنا رجل على قد حالى ، وقد انقرضت أكثر من مرة

إذا طلبت رطلاً كباب وكفتة من الحاتى المجاور فإنه لايبعث لى إلا بالدهن والشغت ، والطبق خارج من ثلاجة لا من فرن . . ودعوت صديقى ليشاركنى طعامى فجاس وأخذ يأكل بتأفف وتأنف ، ولكنه نسى نفسه حين حلا الحديث وتشعبت مسالكه فأكل رغيفه. وقام يستلقى على الأريكة واضعاً يده على بطنه « عندك كازوزة ؟ » .

وبعد ساعة اعمل لى فنجانا من الشاى واعصر عليه ليمونة ». وقبل أن ينزل سألنى : « عندك بيكاربونات صودا ؟ » والخلاصة أنه فعل كل ما خرج من يده وذمته من تفانين التلميح للازراء بهذه الأكلة والتوجس من أضرارها ، حتى ملأنى الكسوف وسلمت أمرى لله ، وقلت له وأنا أودعه « لابد أن أعوضك ، فتعال كل معى يوم السبت القادم »

ولكنى لا أدرى كيف وجدتنى معه عصر الجمعة فى زيارة صديق لنا من الأثرياء ، جلسنا على مقاعد وثيرة فى شرفة واسعة تطل على حديقة عطرة وأقبل الليل ونحن لم نقم ، وصمم صديقنا الغنى أن نتعشى عنده فقبلنا مسرورين وهل علينا سفرجى فى ثوب مخطط وعمامة بيضاء يحمل الأطباق والشوك والسكاكين وهى من أفخر صنف ، فمنينا أنفسنا بعشوة مدهشة ، ثم غاب السفرجى طويلا وعاد ومعه أطباق من السردين والتونة والجبن والحلاوة الطحينية ، وقال لنا صاحب البيت ان هذه هى عادته فى العشاء ، ونصحنا أن نحذو حذوه إن أردنا السلامة من حموضة المعدة وتصلب الشرايين والذبحة الصدرية والبولينا ، فما تظن قد فعل صديقى ؟

رأيته لشدة دهشتي يتوثب في مقعده من شدة شهوته للطعام ويقبل عليه يملأ به فمه ، ويقول لصاحبنا الثرى : هذا هو أفضل عشاء وأخف أكل على المعدة وأنه مثله لا يأكل إلا هذا بالليل صيفا وشتاء .

ولم نشرب بعد الأكل لا كازوزة ولا شايا بليمون أو بغير ليمون ولا كربونات بيضا ولا سودا ، بل كل الذي شربناه قهوة في فناجين لا يزيد حجمها عن الكستبان لأنها طاقم « سيفر » من مخلفات قصر الخليفة عبد الحميد ، عليها طغراء سلطاني ، يا فرحتنا !

وانصرفنا وصديقي نشط ومرح ، ومد يده ليودعني فأخذتها وأبقيتها بين يدي وأنا أصوب نظرتي إلى عينيه أحملها شيئا من اللوم وأخشى أن أقول . وشيئا من الاحتقار ، وانكسر قلبي . . وأخيراً هداني ربي إلى أحسن ستار يتنزل على هذا الفصل البارد فقلت لصديقي وأنا أشد على يده وابتسم : على فكرة ! أنا مسافر غدا إلى الاسكندرية فلنؤجل غداءنا إلى موعد آخر نتفق عليه فيما بعد . . وكان هذا آخر « وش » الضيف . . فلم أقابله بعد ذلك .

وسيجنبك حجاني فيما أؤمل أن تجعل من أصدقائك من هو خيار ومن هو فقوس . .

الموقف الرابع : الحائط المائل

● ليس هذا الفصل من تجاربى الذاتية وإنما حدث لصديق لى يقول عنه بعض معارفه وهم قلة إنه طيب القلب ويقول آخرون منهم — وهم كثرة — إن طيبته ضعف وعجز ، جاءنى ذات يوم يكاد لا يحسن ضبط دموعه لا من جرح نزل به بل من شدة خيبة أمله فى صديق حميم له ، يجمعهما معا العمل فى مكتب واحد تحت إمرة رئيس جاهل غليظ الطبع قليل الأدب ، ولنترك الكلام لهذا الصديق المسكين. قال :

— « أنا لا أنكر أن هذا الرئيس يسىء معاملتى ولكنه — والشهادة لله لم يرتفع توبيخه لى إلى حد الاهانة ، وهو أيضا — والحق يقال — يفتكرنى بالمناكفة يوماً وينسانى أياماً . أما هو مع صديقى فوحش كاسر ،ولا أدرى لماذا ؟ كلما دخل عليه سبه وهزأه ولعن سنسفيل أجداده ، هذا شأنه معه كل يوم كأنما طعم العيش لا يحلو لهذا الرئيس إلا إذا غمسه فى إهانة صديقى ، فريسته السهلة ، وكنت فى أحيان كثيرة أسعى إلى تطييب خاطر صديقى وأصبره على بلواه ، فكان يتهرب وينكر ما يحدث له ويعدل بالحديث إلى موضوع آخر ، فأعزو تصرفه إلى الخجل ، ولعلى اليوم قد بالغت فى الحنو عليه ، فهل تدرى ماذا كان رده ؟ بعد أن أطلق لسانه فى سب هذا الرئيس بأفحش الألفاظ التفت إلى وقال :

أتمنى أن يقع هذا الوغد السافل فى نكبة ، إننى أكرهه أشد الكره ، لا لشيء إلا لأنه يسيء معاملتك وأنت أطيب الناس وأرقهم إحساسا ، ولو فعل معي مثل ما يفعله معك لبصقت فى وجهه وكسرت له رأسه وأفهمته مقامه ومن أكون أنا ! »

ورفع إلى صديقى المسكين وجهه محنقا مغيظا وقال : الآن أدركت معنى المثل القائل : الجدار المائل تنط عليه الكلاب .

وأدركت أنه يصف بالكلب صديقه لا رئيسه ..

وأرجو أن يكون فى حجابى وقاية لك من مثل هذا العار ان حملتك حماقتك ذات يوم على أن ترمى صديقا ضعيفا بدائك ثم تنسل أنت ..

إذا فرغت أيها القارىء العزيز من هذا المقال فاقطعه إن أحببت بالمقص وطبقه أربع تربع ، مرة ثم أخرى حتى يصبح فى حجم الطعمية ، وضعه فى كيس أخضر ، وعلقه من رقبتك على لحمك فوق صدرك ، أو اعدل به إلى ما تحت إبطك لأنه حجاب أكيد المفعول أقدمه لك مجاناً لضمان دوام المحبة ولك أن تعتز به فسيكون أول حجاب لا يكتب بالسريانية وبنغمشة الفراخ بل بلغة عربية وبخط منمم مقروء وإن وجدت فيه أغلاطا مطبعية قليلة فليس الذنب ذنبى، اعتبرها فاسوخة تزيد من قيمة هذا الحجاب !

(« المساء » : ١٩٦١/٥/١٥)

ياأولاد الحلال

أحب أن يتطوع إنسان ابن حلال يكون مغرماً بالقصص والأفلام البوليسية من هتشكوك ونازل ليسلى إلى معروفا ويبحث لى عن — أو يقبض لى على — شخص يلاحقنى كلما فتحت الراديو لأستمع إلى أغانينا ، . فأنا من كثرة الزن بسيرته على أذنى أصبحت فى أشد الشوق للقائه ومعرفته والتمتع بطلعته البهية ، وأؤكد للصديق المتطوع أننى — على خلاف إخواننا الموظفين — ما ألقيت عليه الحمل إلا بعد أن شقيت بعبئه أولا حتى وحوحت وأعلنت على الملأ إفلاسى وأصبحت كالبلاط الذى لا يأخذ منه الريح شيئا .

فقد أمضيت أياما عديدة وليس لى من هم إلا مطاردته ، أتشمم كالكلاب السلوقية رائحته فى محيط أصدقائى المشهورين

بمغامراتهم الغرامية ، أحملق فى وجوه جيرانى ركاب الأوتوبيس الملتصقين بعضهم ببعض وفى جيرانى الجالسين فى آخر الصفوف فى السينما حتى ضاقوا بى ذرعاً ، أتتبع فى الصحف باب « أجمل من رأيت » فأزور الحى الذى قدم لنا منافسة خطيرة لمارلين مونرو أو بريجيت باردو « وإن كان عمر بطلتنا يقل عن ١٦ سنة » ، أستعرض جميع لافتات كافة نقابات المهن الحرة على الأبنية القديمة فى الحوارى أو على الأبنية الحديثة على وجه الدنيا، من أول شارع نقابة صرافى تذاكر الدرجة الثالثة بالسكك الحديدية . الى شارع نقابة المحامين فمن يستمع للأغانى معذور إذا وثق أن هذا الشخص معتز بمهنته وأن له عزوة كبيرة لا بد أن تؤلف لها نقابة يتوجها مجلس إدارة محترم « عند الناس الأغراب لا عند الأعضاء » مؤلف من رئيس ووكيل وسكرتير وأمين صندوق ، فعلت هذا كله ، فلم أعثر لهذا الشخص على أقل أثر ، كأنى أبحث فى حجرة مظلمة عن قطة سوداء ايست بها .

ومع ذلك أستطيع أن أساعد الصديق المتطوع فأقدم له بعض المعلومات التى تجمعت لدى عن هذا الشخص ، فهو — أولا — فايق ورايق ، ولا شك أن هذا الوصف سيساعد صديقى كثيرا ، لأن الفايق الرايق تلحظه العين بسهولة لندرته وسط الجموع الفقيرة المنشغلة بهموم النفس أو متاعب الدنيا ، وهو ثانيا ، يقف عادة تحت الشبابيك وبالقرب من الأبواب وبالأخص بالليل حين يطلع القمر على العشاق ، وهو ان سار خطوة فلتتبع إنسان آخر ، قد يكون

رجلا وقد يكون امرأة ، فهو يضرب ضربته زوجاً زوجاً لا فرداً فرداً ، ولم تصبه بعد عدوى التخصص ، وهو لا يلحظ همساً يدور ولو من بعد سحيق بين رجل وامرأة إلا طار إليهما وكان ثالثهما ، وهو – أخيرا – مع أنه فايق ورايق ليس بين الناس من يضارعه فى الصفاقة ، إنه مغرم بحشر نفسه فيما لا يعنيه ، هو كالفتوات لا يطيق أن يرى سرادق فرح لم يدع إليه إلا إذا هده وحطم الكلوبات ، ويظل طول عمره لا ينشف ريقه من الرغى ويظل يضرب فى حديد بارد فلا يكل ولا يمل .

هو وراك وراك والزمان طويل .. وهو أكبر متعهد مستعد لتقديم موضوعات لمؤلفى الأغانى وإن لم يكسب من خدماته الجليلة مليما واحداً لا عن حق التأليف ولا عن حق الأداء .

فهل أدركت أيها الصديق من يكون هذا الشخص ؟ إن لم ترض إلا بالافصاح هربا من وجع الدماغ فى التخمين فاستمع معى لهذه العينة التى اخترتها لك – كل شيء كان من أغانينا الحلوة التى تدور على كل لسان :

العوازل ياما قالوا بتحب ايه . .

مريت على بيت الحبايب من غير عزول أو رقيب :

كان عهد جميل ، حاسد وعزول :

اخترلك خيرة – يانا يالعزال .

قول ياعزول مهما تقول – إحنا حبايب وانت عزول

وإن كان على قول العزال – خلى اللى يقول يقول :

العزول فايق ورايق .

يا عوازل فلفلوا . . . . :

هذا هو العزول الذى أضنيت نفسى فى البحث عنه فلم أنجح ؛ وأرجو من الصديق المتطوع أن يقبض لى ولو على عزول واحد ، واحد فقط ، حتى أشفى غليل الشوق إلى لقائه .

ويتبين من أغنية « يا عوازل فلفلوا » أن العزول يدخل أيضاً فى اختصاص الأستاذ أحمد رشدى صالح مؤرخ الأدب الشعبى من حيث مقدرة هذا العزول على إثارة نوع طريف من الردح البلدى ، فأنا أريد منه أن يسجل لنا بالصورة والصوت للأجيال القادمة أنموذجاً قبل أن ينقرض لهذا الذى يطلب من العوازل أن يفلفلوا على أن تبين الصورة حركة الصحن الذى يمثله دوران يد مضمومة على كف مبسوطة يقطعه بين الحين والآخر دق من اليد على الكف ، يصحبه لمعان العين وتلعيب الحواجب وشد الخدود وكشف الأنياب وترقيص الجذع كله رقصة خفيفة . . المفروض أن الذى يفعل هذا كله شاب عاشق هو أفندى متعلم لابس بدلة وجاكتة . . ويترنم وهو يصحن الفلفل بأغنية تصلح لترقيص القرود بالنقر على الدف وتلعيب الحواجب ، ارقص ياميمون ارقص بلدى ! .

ترى فى أى عهد أسود تسللت كلمة العزول إلى أغانينا ؟ الذى أستطيع أن أؤكده أن شعر الجاهلية وصدر الإسلام وأيام عز الدولة العربية قد خلا من هذه اللطخة ، وأرجح ، وإن لم يكن لدى دليل ، انها ترجع إلى عهد انحطاط الشعر العربى إبان احتضار الدولة العباسية ، كان الشاعر حينئذ لا يخجل من أن يلطم الخدود ويشق الجيوب ويستغيث بطوب الأرض لترثى له وتبكى معه على نكبته حين لمح شعرة بيضاء فى مفرقه . أتعرف سر النكبة ؟ إنه انصراف الغوانى عنه ، وضياع قدره فى سوقهن مهما بذل من مال أو صاغ من قصيد ، انه بهذا الشعر يخطو الخطوة القصيرة التى تفصل المترف الهايف العاطل فارغ العقل من الرجولة إلى التخنث . وكان الشاعر يظن أن هذا الكلام الغث الرذل هو اللطف كله ، وأنه خفيف الوقع على السامعين .

هذا هو العهد الذى كثر فيه الكلام عن الخضاب ووصف أنواعه وسحره ومفعوله الأكيد .

أعترف أن كلمة «العزول» تختفى شيئاً فشيئا عن أغانينا والحمد لله ولكنها كالحشرات ، تترك وراءها سبانا يعشش فى الشقوق ، فعسى أن تفعل فيها كلمتى هذه ما تفعله « المبيدات » فى البق والصراصير .

(« المساء » ، ١٩٦١/٣/٢٧ : ص ٦)

مطاردة المتسولين

صديقى هذا من عادته أن يقرأ الصحيفة من أول سطر إلى آخر سطر ، لا لأنه محال على المعاش ولا لشدة نهمه للمعرفة ، بل لشدة بخله ، فالسفه عنده ليس فى الصرف وحده بل أيضاً فى العزوف عن القبض ، ما دام قد دفع القرش ثمناً للصحيفة كلها فلا بد أن يعتصر منها حقه كاملا وإلا فهو الغبن والحماقة .

سأحدثك عن نوادره فى فرصة أخرى ، يكفى الآن أن تعلم أنه لو دخل سباق حواجز لصرف مائة مليم لتصنيع العبط والغشومية وتعثر بكل حاجز وجاء ترتيبه الأول من ناحية الذيل ، ولكنه شأن أغلب البخلاء صاحب كرم جميل إذا كانت العملة التى يجود بها مجرد كلام ، ينسيك بطلاوته تقتيره . وهذا هو سر اتصاف البخلاء بالظرف وخفة الدم .

حينما جلست إليه فى القهوة وجدته قد فرغ من قراءة الأخبار الخارجية والداخلية وبدأ يفلى الإعلانات المبوبة ، فطوى الصحيفة والتفت إلى وقال بلهجة الحائر المرتبك : —

— أما حكاية ! هل لحقنى الخرف أم اختلطت ذاكرتى أم تشابهت الأيام وكف الزمن من الجريان أم الحقيقة أن حالنا لا يتغير ، يحدث لى مرارا هذه الأيام بعد أن أصل إلى بطن الصحيفة أن أعود إلى عنوانها لأقرأ تحته تاريخها وأتثبت أنها طازجة بنت اليوم ، إذ يخيل إلى أن كثيرا من الأخبار التى أقرأها فيها قد سبق — أنا متأكد — أن مر على بنصه وفصه فى الصحيفة ذاتها أكثر من مرة من قبل .

قلت له مقلداً بيدبا الفيلسوف : وكيف كان ذلك ؟

قال :

أنت مبخت ، إليك مثلا بخبر منشور اليوم ، خذ اقرأه بنفسك ثم اعطنى عقلك .

قرأت من تحت أصبعه خبراً يقول « يقوم رجال الشرطة هذه الأيام بحملة واسعة النطاق لتطهير العاصمة من الشحاذين ، مع توجيه العناية إلى الشوارع القريبة من المحطة ومن فنادق السياح ، وقد عقد الحكمدار — لهذا الغرض ! — مؤتمراً صحفياً . الخ الخ » .

قال صديقى ونظرته متشبثة بعينى :

بذمتك ألم تقرأ أنت مثل هذا الخبر من قبل أكثر من مرة ؟ الجديد

فيه راجع إلى البراعة اللغوية وبارك الله فى مترادفات اللغةالعربية، فالمسألة هى مرة « تطهير » ومرة « مطارة » ومرة « أجلاء » ومرة « مقاومة » . على كل حال كلها ألفاظ تصلح لوصف المعارك الحربية التى يخرج لها الجنود بالبنادق والخوذ ، ينشر هذا الخبر فأصبح لا أجد فى المترو هذا الشحاذ الذى يمد لى حتى تلمس أنفى وسط الزحمة يدا كأنها خارجة من لوحات بيكاسو ، ولا هذا الصبى الذى انقلبت يده هو الآخر إلى خطاف بشع ومع ذلك تتناول القرش فلا يقع منها.

فإذا بلغت وسط العاصمة رأيت لوريات ضخمة يتحلق فيها الشرطة حول أكوام من قمامة التشرد فلا أدرى أيها يصعب على : هؤلاء المساكين أم الجنود أنفسهم ، وأقول : كان الله فى عونهم ماذا سيفعلون بهم ؟ يختفى كأنه فص ملح ذاب ، هذا القروى الذى يسألنى فى مصر الجديدة أين طريق الهرم وأحيانا أجده فى الهرم فيسألنى أين طريق مصر الجديدة . إنه ذو حياء لأنه يكتفى كل مرة بقرش ولا يسألك ثمن أبونيه . ثم أغمض عينى وأفتحها وأركب المترو فإذا من جديد يد بيكاسو ذاتها فى أنفى ، والخطاف ممتد إلى ، والرجل لا يزال تائها فى مصر الجديدة . أين ذهبوا ؟ كيف عادوا ؟ كيف احتل كل واحد مكانه المرسوم كأنك يابو زيت لا رحت ولا جيت ؟!!

والغريب أن خبر الحملة الواسعة النطاق يكون مصحوبا عادة بخبر آخر عن متسول يموت عن تركة تبلغ الألوف من الجنيهات يتلازم الخبران كأنهما على موعد حتى كدت أشك أن الشرطة هى

التى تخترع خبر المتسول المليونير لتضمن مشاركة الجمهور بقلبه فى حملتها ، ثم يسحب النسيان ذيله على الحملة والتركة معاً .

واستطرد صديقى يقول :

لا تغيظنى عودة الشحاذين بقدر ما يغيظنى التعلل بسمعتنا أمام الأجانب فى كل خبر ينشر عن هذه الحملة ، فهل لو هاجر الأجانب من بلادنا رضينا لأنفسنا بما لا نرضى به لحضراتهم ؟ .

قلت له : وما الحل ؟

قال لا بد أن تتغير صيغة هذه البلاغات الحربية وتمتنع ألفاظ المطاردة والمقاومة والتطهير والإجلاء وتحل محلها ألفاظ مثل « إيواء » و « تشغيل » و « توطين » إننا حينئذ نتوقع للشرطة أن تنتصر فى هذه المعركة الرهيبة التى خسرتها كل مرة خاضت فيها غمارها .

وسكت صديقى لحظة ثم قال :

وعلى ذكر الأجانب ، أنت تعلم أننى جاوزت الخامسة والخمسين وقد قرأت أخيرا خبرا أؤكد لك أننى قرأته بنصه وفصه قبل أن أبلغ سن العشرين ، وقرأته بين العمرين أكثر من مرة ، انه يختفى ويظهر كالنجمة أم ذيل ، هو خبر على شكل رسالة وإدارة لرئيس التحرير من طالب أو عضو بعثة مسافرة لأوربا أو أمريكا إنه نزل لدى أسرة أو دعى لمأدبة فكان أول سؤال

تلقاه ممن يحيطون به : لمـاذا تظل المرأة عندكم محجبة ، ولماذا تتزوجون من أربع نساء ولماذا تركبون الجمال وماذا تفعلون بالتماسيح التى تملأ نيلكم وتسرح فى شوارعكم ؟ ويلطم المواطن الغيور خديه فى رسالته ويناشد أولياء الأمور أن يفعلوا شيئا للتعريف بنهضتنا وانقاذ سمعتنا ، وتقف الرسالة عند هذا الحد إذا كان صاحبها ملولا يجد فى الشكوى تمام لذته ؛ وتزيد أحيانا إذا كان صاحبها من المناضلين فيخبرنا أنه تطوع للقيام بحملة هى الأخرى واسعة النطاق لدحض هذه المفتريات ؛ ويطالب بأن تصله بسرعة نشرات مصورة بكل اللغات وأفلام ثقافية قصيرة .

فإذا قرأت هذا سألت نفسى كل مرة هل رضع هؤلاء الناس مع الألبان أمهاتهم فكرة قائمة ثابتة عن الشرق لا تتغير؟ لماذا تعمى أعينهم عن سفاراتنا ومفوضياتنا وقد أصبحت منتشرة فى بلادهم ؟ ويخيل إلى أن العلاج الأول هو أن نجمع نسخ كتاب ألف ليلة وليلة بكل اللغات ونحرقها ؛ إنه السبب الأكبر فى هذه النكبة ، ثم أعود للعقل وأتمنى أن نبذل لدى هيئة اليونسكو جهدا متصلا للتوسط لدى أعضائها لتضمين كتب المطالعة فى مدارسهم وصفاً صادقاً ولو مرة لبلادنا . ثم أرجع فأحكم أن هذا حلم صعب التحقيق فإلى أن يزول التعصب وتتفتح العيون سيظل هذا الخبر فى صحفنا يتكرر بصيغة واحدة ، لا تتغير لا فرق بين الماضى والحاضر والمستقبل القريب .

ومر بنا جرسون يحمل كأساً من خمر لزبون فعلقت بها نظرة صديقي فإذا به يهتف :

ــ خذ خبراً آخر قرأته أكثر من مرة « ضبط رجال مصلحة الإنتاج والرسوم المقررة معملا لتقطير الخمور خفية وأسالوا على الأرض محتويات عشرة براميل ملأى بسوائل سامة مغشوشة » .

فإذا كان الصحفي ناشر الخبر نشيطاً أو يهوى كتابة القصص القصيرة أضاف أن التقطير كان يتم في مرحاض منزل قديم من أملاك الأوقاف في زقاق هيهات أن تجده في خريطة العاصمة ولو كانت مرسومة بنسبة واحد إلى واحد ، إنه يريد وهو يذكر المكان بالتحديد أن يوحي بوسيلة الغش .

واستمر صديقي يبتسم :

« أول أثر لهذا الخبر في نفسي هو الانتقال بذهني إلى هذه الخمارات الحزينة المتوارية كذوى العاهات في أحياء القاهرة ورؤيتي لروادها يحتسون عياناً بياناً ــ لا خفية في مرحاض ــ أنواعاً من الخمور يكفي لونها وحده أن تثق بأنها من منقوع البراطيش ، ومع ذلك يجدون فيها السعادة والنسيان ، فأحكم أن هذا الخبر سيكربهم أشد الكرب ، فحرام عندهم أن تراق هذه النعمة على الأرض هدرا ، إنهم أصبحوا إذا كان قد بقيت لهم أمنية فهي أن يطلبوا الى الحكومة ألا تسمح ببيع خمر إلا إذا كان مغشوشا ، ولا فرق بين سم وسم لأنهم أصبحوا لايروى ظمأهم إلا الخمر المغشوش ، كنت أتمنى أن يكون رجال مصلحة الإنتاج مصحوبين بمندوبين من وزارة الصحة ، هذا أقل رجاء لأن تمام العدل أن

تنفرد وزارة الصحة بمحاربة هذه السموم لتعليق المسئولية برقبتها :

والأثر الثانى لهذا الخبر عندى هو الانتقال بذهنى أيضاً إلى هذه الأكوام من المأكولات على عربات اليد وفى المطاعم لا فرق بين شعبية وراقية، إنها إذا لم تخضع لرقابة شديدة سموم لا تقل عن هذه الخمور الفاسدة . فلماذا لا تقرأ خبراً عنها ؟ ولا أريد أن أحدثك كيف يباع الخبز واللبن فى معظم الأحيان .

هبط على صديقى ، صمت حزين ثم خرج منه وهو يقول هامساً :

يؤدى بنا الحديث السابق إلى خبر آخر تكاد لا تمر سنة إلا نشر وفى كل مرة بصيغة واحدة ينبئنا بضبط عصابة من المجرمين العتاة تجمع الصبيان المتشردين لتدريبهم على النشل والسرقة وتهتك فوق البيعة أعراضهم . ولا يقل عدد هؤلاء الضحايا فى كل مرة عن خمسين أو ستين . إننا نرى هؤلاء الصبية رأى العين ثم نشيح بوجوهنا عنهم .

قلت له : مشكلة هؤلاء الصبية هى صورة أخرى لمشكلة الشحاذين التى بدأت بها حديثك وما دمت قد بدأت تكرر نفسك فاسمح لى بالانصراف ، كفاية ، عن إذنك . .

(« الأهرام » : ١٩٦٠/١٠/٢٣) بعنوان
« مطاردة المتسولين وأخبار أخرى »

تاريخ من نوع جديد

لعل دعاء : « اللهم اجعل كلامي خفيفا عليهم » هو تفسير امتناع جميع المؤرخين من قدماء ومحدثين عن أن يضعوا لنا إلى جانب كتبهم العديدة التي تشيد بانتصارات الإنسان ولو كتابا واحدا مختصرا يحصر ويعدد النكبات التي نزلت بهذا الإنسان منذ مبدأ خلقه إلى اليوم ؛ وفاتهم أن التذكير بالنكبة إن صدر عن قلب سليم وبغير تثبيط للهمة هو تبصير يزيد نفعه على ضرره .

لذلك نازعتني نفسي — والنفس أمارة بالسوء — أن أضع مثل هذا الكتاب ، لا أذكر فيه غوائل الطوفان والحرائق والأوبئة والحروب وتدهور البورصة ، فهذه كلها جراح تندمل بغير ندوب ، وكل واحدة منها عقيم ليس لها ذرية ، بل اجعل الكتاب خالصا للنكبات الروحية التي أفسدت الإنسان وسليقته ؛

وهى نكبات ولود لاينقطع نسلها جيلا بعد جيل بل يشتد مع الزمن ويقوى، ولكنى عدلت عن وضع هذا الكتاب لخوفى من أن يجىء هو الآخر فى عالم التأليف نكبة كبيرة تهون معها كل النكبات التى يتضمنها، ومع ذلك يشق على . و هذا شأن كل مؤلف — أن يفطس هذا الكتاب، فاسمح لى — واستحمل — أن أقدم لك لمحة سريعة لفصوله الأولى، وسترى أننى أيضا دعوت الله أن يجعل كلامى خفيفا عليك .

الفصل الأول

اقتران بين الذكاء والكذب

● أول نكبة فى التاريخ هى أن أول إنسان اتقدت فى رأسه أول شرارة لأول ذكاء كان أول إنسان نطق لسانه بأول كذبة، وهكذا جاءت ولادة الذكاء مقترنة بولادة الكذب فى مهد واحد، فلم تكن لغة الانسان البدائى شيئا منفصلا عن الواقع بل هى مجرد تسجيل تلقائى لهذا الواقع : فاذا رسم بالحجر الأبيض على جدار كهفه دائرة ولو معوجة قليلا قصد بها البدر فى السماء لا شيئا آخر ، وإذا فرضنا أن معجزة ردتك من الزمن الحاضر إلى زمنه وعلقت على رسمه قائلا : هاها . أنت ترسم وجه جارتك الساكنة

قصادك » لما فهم من كلامك حرفا فليس في ذهنه قدرة على الخروج عن الواقع وتسمية الأشياء بغير مسمياتها لا أقول إنه سيحكم عليك بالجنون لأن الجنون من ثمار الحضارة ، وإذا عاد هذا الرجل يحمل على كتفه فخذة ثور ورسم على جدار كهفه صورة أسد يفترس ثورا قصد أنه انتزع هذه الفخذة من فم الأسد، وفهمت زوجته الحكاية دون شك وقفزت على قدميها وصفقت افتخارا ببطولته .

فما الذى حدث ذات يوم من أيام النحس ؟

بعد أن استوثق الرجل من خزين بيته عاد فى اليوم التالى إلى الكهف بامرأة يجرها من شعرها ورسم على الجدار صورة رجل يطعن نافوخ رجل آخر بزلطة مدببة، يعنى أنه قتل زوجها وخطفها ، فقفزت زوجته هذه المرة لا تصفق بل تلطم على خديها ، غيظا من خيانة زوجها ، وغيظها مسألة غريزة لا فضل لعقلها فيها ، وباتت فى ركن مغمومة ، تغلى طاسة رأسها غليانا لم يعهده رجل من قبلها ، من هذا الغليان نبت فى مخها وميض ضئيل غريب لم تعرف أنه أول مشكاة لأول ذكاء .

قامت قبل الفجر وزوجها لا يزال راقدا إلى جانب غريمتها — كما يحدث فى كل ليلة دخلة — وبحثت عن بقية الفخذة وأكلتها كلها ، ولما استيقظ الرجل وطلب فطوره بسطت له كفين فارغتين وقالت له بالغمغمة أو بالرسم : زوجتك الهانم الجديدة امرأة مفجوعة، هى التى أكلت الفخذة بالليل وأنت نائم على أذنيك .

وهكذا شهد الكون أول كذبة ، وأول ذكاء .

ولما كان الكذب لا يزال مستحيلا على ذهن زوجها فإنه زجر فى وجه السارقة وكشر لها عن أنيابه حتى حسبته سيأكلها بدل الفخذة فولت هاربة .

وطفح البشر على وجه الزوجة وإن ظلت توحوح من وجع بطنها عدة أيام وزعمت لزوجها لتعليل وجعها أنها حُبْلى — وهكذا ولدت الكذبة الأولى كذبة أخرى فى أقرب وقت ، وامتد بعد ذلك نسل الكذب وانتشر حتى عم الأرض .

أتدرى ماذا حدث للرجل ؟ لقد انتقل إليه بالعدوى أول ذكاء وأول كذب ، فأدرك حيلتها وقال لها وهو يربت عليها « أنت أجمل امرأة فى الوجود » (هذه هى الكذبة الثالثة فى التاريخ وأول كذبة من فم الرجل) ثم قال فى سره : « من أكل لحما نيئا وجعته بطنه » فسارت مثلا مشهورا منذ ذلك اليوم .

لا تغضب منى امرأة لأنى نسبت إليها أول كذبة ، يكفيها فخرا أننى أرجعت إليها لا إلى رجل أول ذكاء ، بفضل الكذبة الأولى انتقل الانسان من عالم الواقع ومآمنه ، إلى عالم الخيال ومهالكه ، وتهيأت اللغة إلى الخروج من الفردية والتفاصيل إلى العموميات والكليات ونشأت مع الأسف والفلسفة ، وأصبح الإنسان لا يخشى أن يفرض فروضا كاذبة يستخرج منها نتائج صادقة ، وهكذا نشأ العلم التجريبى أيضا وظل طول عمره بسبب نسبه الشريف

فى حيرة من أمره ، النتائج الصادقة لا تلبث طويلا حتى تصبح فى يده من جديد فروضا كاذبة ، ولكن اقتران الذكاء بالكذب فى المولد أحاط الذكاء منذ اللحظة الأولى بريبة منه وتوجس ، وجلله برائحة زخمة تعافها الأنوف .

إن لم تصبح كلمة الذكاء من مترادفات كلمة الكذب فإنها منذ نشأتها توحى بأنك إذا وصفت رجلا بأنه ذكى كان المفهوم أنك تتحدث عن خبيث ألعبان لا تستطيع أن تثق به أو تطمئن إليه ، ولم يعترض أحد حين نصت أغلب الديانات على أن أول الداخلين إلى الجنة هم البله والسذج البسطاء .

من بطن أول امرأة كذبت لا من بطن غيرها جاء كل شاعر وفنان ، وجاء أيضا كل نصاب ومغامر ، فأنت ترى الإنسان والأديان تتوجس شرا من الذكاء وهى على حق ؛ فإنه وإن أقام الإنسان سيدا للكون فإنه هو وحده الذى فصله عن الكون وقطع اندماجه به ، وعدد المقاييس فاختلط الصادق الدائم بالزائف العابر ، أمات غرائزه واستبدل بها عادات هى وليدة عوامل مصطنعة لا الطبيعة الصادقة ، يتزين الإنسان بهذه العادات وماهى إلا حجر ثقيل معلق فى عنقه هى سبب شقائه فى هذه الأرض ، واستمرأ الإنسان الكذب حتى أصبح من فرط ذكائه يعتقد أن حياته ذاتها أكبر كذبة فى التاريخ ، وهذا كفر صريح .

فاذا دعوت لك أيها القارىء أن يشفيك المولى من ذكائك ويهبك قسطا وفيرا من السذاجة فاعلم أننى أدعو لك بخير ..

الفصل الثانى

طلاق بين السحر والطب

● جاءت النكبة الأولى — كما رأيت — بسبب اقتران ، أما النكبة الثانية فقد جاءت بسبب افتراق ، يوم انفصل الطب عن السحر بالطلاق . تعال معى نشهد ماذا كان يحدث من قبل وماذا يحدث من بعد .

لم يغمض لرجل جفن طول الليل فى كهفه ، كفه لا يرتفع عن جنبه ، لم يقل لزوجه إنه يشعر بوخز إبرة لأنه كان لا يخيط بعد جلد النمر الذى يلبسه إذ كان عاريا كما ولدته أمه ، إنما أكد لها أنها طعنة عفريت جاءه فى كابوس على هيئة خرتيت ، فلما شقشق النور مضى إلى الطبيب الساحر ، ودخل عليه من فوره وأسلم له نفسه وتلقى لمسة يده لرأسه وتعاويذه والمضغة المرة التى وضعها فى فمه — تلقى كل هذا بقلب آمن مؤمن واثق أن الشفاء فى يد الطبيب الساحر وحده ، قد فعل هو كل ما يقدر عليه وما بعد ذلك سر محجب على الاثنين لا حيلة لهما فيه .

أما اليوم فحفيد هذا الرجل إذا أصابه مثل هذا الوجع بالليل أقام البيت وأقعده ، سأل زوجه عن سبب مرضه كأنها من خريجات كلية الطب ، وضرب مائة تليفون لأصدقائه فمنهم من يقول له إنه

مغص معوى ونصحه بأن يضع على جنبه كيس ردة أو قربة ماء ساخن ، فينهال على زوجه يسألها أن تتذكر له كل طعام تناوله فى اليوم السابق ، هل هو عصير القصب أم قطعة الجاتو؟ ومنهم من يقول له انه مغص كلوى . ويصف له وصفة فلا يتركه حتى يستفسره عن أسباب هذا المرض وعوارضه وكيف تنشأ الحصوة وما هى أنواعها ، ومنهم من يقول له إنه مصران أعور وينصحه أن يستدعى الإسعاف أو بوليس النجدة فورا. يقفل السكة وهو منزعج ثم يطلب آخر أصدقائه ويسأله :

— إنما المصران يمين أم شمال ؟

— يمين طبعاً .

— أنا حاسس بالوجع فى الشمال .

— هذا اسمه « رفليكس » يا مغفل .

— ولماذا لا أكون أعور شمال . . الخ ؛

ويقوم هو وزوجته إلى صندوق كبير مختزن فى الحمام ، مملوء لتمّ عينه بعشرات من الزجاجات ، بعضها بختمه لم يمسّ ، وبعضها مملوء إلى النصف ، وبعضها فارغة ، يحتفظ بها ليطلب مثيلاتها فى المستقبل ومع أنه اشترى هذه الأدوية بنفسه واستعملها إلا أنه من شدّة انزعاجه قد نسى لماذا هى موصوفة ، وإذا تأكد أن واحدة منها تصلح له خشى أن يكون التخزين قد أفسدها ، ويعود إلى التليفون من جديد يسأل أصحابه كلهم عن اسم الطبيب الذى يثقون به فلا يجمع اثنان على رأى ، يذكر له واحد اسم

طبيب ويقول له : إياك أن تذهب إلا إليه ، ويقول عنه صديق آخر : إياك أن تذهب إليه، بل اسمع كلامي واذهب إلى فلان .

وبعد ليلة يقضيها فى عذاب تنهد منه أعصابه وتسوء حالته يذهب من غد إلى الطبيب فيقابله كمسارى فى زى تمورجي يبيع من دفتر تذاكر، ويقول له : تعال بعد أسبوعين . . فيمضى إلى آخر فيعلم أنه سافر للشام ، أصبح البحث عن طبيب لعبة استغماية .

وأخيرا يدخل على طبيب وهو لا يثق به كل الوثوق، يظن انه سيسارع إلى الكشف عليه ولكن بال الطبيب طويل فهو يجلسه أولا جلسة التلميذ فى امتحان عسير .

وأخذ يسأله ، وهو يكتب ، عن عمره ووزنه ، عن مهنته وتاريخ زواجه وعدد أولاده وكم منهم مات « فيجدد أحزانه » ، ثم عن أبيه فى أى سن هلك وبأى مرض « يذكره بيتمه ومأتمه » ، ثم عن كم مرة حملت أمه وكم مرة سقطت ، كان هذه المسائل يتناولها حديث الأسرة حول مائدة الطعام . ألا يعلم الطبيب أن هذا عار ليس بعده عار، أن يسأل أمه كم مرة سقطت. إنه يربأ بها بأن تكون كبقية النساء ، إنه يؤمن أنها عاشت وسط أولادها بكرا مطهرة شريفة ، فلم يبق إلا أن يفضحها الطبيب ويعريها أمامه وهى حرم مقدس عنده .

ثم قاس ضغطه وضرب بالمطرقة ركبه وطلب إليه أن يسير فى الحجرة سير المنوم وهو ماد ذراعيه إلى الأمام وأخيرا قال له :

قبل أن أكتب لك الدواء آتنى بتحليل للبراز والبول والبصاق والدم وعصير المعدة ، وقياس الميتابولزم ، وصورة أشعة للمعدة والقلب والكليتين والجيوب (الأنفية طبعاً لا جيوب البنطلون) .

خراب بيوت وضياع وقت وهم أكبر من هم المرض ، ولكن مهلا انه سينتقم من هذا الطبيب بدوره : فإذا عاد إليه بما طلب وتسلم الروشتة أخذ يمتحن الطبيب امتحانا عسيرا فيسأله عن سر مرضه وعوارضه ومراحله ، وهل الدواء محلى أو مستورد ، ويلاحقه بالتليفون ليفضى إليه بكل رعشة أو تنميلة فى جسده . . وإذا خرج من العيادة والروشتة لا تزال فى يده قابله صديق فخطفها منه وقرأها ثم قال له وهو مزهو بعلمه :

— ولكنك لم تخبرنى أنك مريض أيضا بضغط الدم ؟

يا خبر أسود ؛ هل يعود إلى الطبيب من جديد ليستوثق منه أم يعدل من الكسوف ويذهب إلى طبيب آخر .

ويمتلىء صندوق الحمام بعدد هائل آخر من الزجاجات . .

هكذا ترك الطب كهف الساحر ، تحرسه فيه الطلاسم من العبث وهبط الى الشارع وفقد كل هيبته ، وقل نفعه ، فأينما سرت أمامك إعلانات شيقة عن أدوية تشفى جميع الأمراض بسرعة وأمان ، كل وصف لدواء جديد كأنه موسيقى زفاف عروس يتمنى الصحيح قبل المريض أن يأخذها بين أحضانه ، والأدهى من هذا كله أنباء تبشر باختراع جديد يشفى مرضاً خبيثا ولكن أين ؟

فى أمريكا أو فى روسيا ، فانظر إلى لهفة المرضى عليه وخيبة أملهم إذا طلبوه فقيل لهم انه لايزال فى دور التجربة .. اذن فلماذا التعجيل بالنشر ؟ أصيب الإنسان بنكبة كبيرة حين أصبح كل إنسان نصف طبيب إن لم يكن طبيبا كاملا . . .

وامتهان الطب صحبة امتهان للصيدلة ، لحقتها فى صباه وهى دكان محاط بالغموض والرهبة ، لا يقربه إلا المحتاج إليه وهو مضطر ، تشع منها رائحة المستشفيات ، على بابها كالرصد رسم لثعبان مدلدل اللسان فإذا رفعت بصرك وجدت وسم جمجمة بين عظمتين ، يا ساتر يارب .. والأرفف كلها ملأى بزجاجات عليها أسماء لايستطيع لسانك النطق بها ، لاعلاقة لك بها ، الصيدلى وحده هو الذى يعرف سر تركيب عناصرها ومزجها .

أما اليوم فالصيدلية تجمع بين محل لبيع العطور ومحل لبيع الحلويات والبونبون ، يدخلها المحتاج وغير المحتاج ، فعلى الأرفف زجاجات مختلفة عليها أسماء سهلة كأسماء البسكويت ، تعرفها حق المعرفة من كثرة الإعلان عنها ، فلك أن تمد يدك وتختار منها ما تشاء ولا دخل للصيدلى بك ، لى أكثر من صديق فى بيته صيدلية كاملة لم يشترها بروشتة واحدة . . .

هذه هى النكبة الثانية ، بعد أن كان الطب سحرا له جلاله ،

أصبح هواية أو لعبة . ومن اللعب ما يسفر عن ضحايا يفوق عددهم ضحايا أشد المعارك هولا .

وكان الإنسان من قبل يعالج كأنه روح بلا جسد ، فلما افترق الطب عن السحر أصبح يعالج كأنما هو جسد بلا روح ، وهذا في نظرى هبوط من نصف الصدق إلى نصف الكذب .

انا والنسيان ودواه

قابلت صديقى خارجاً من عيادة الطبيب والروشتة لا تزال فى يده بذار الفرن لأن الأجزخانة تحت العيادة أو قل لأن العيادة فوق الأجزخانة ، الله يبارك للاثنين فى معاهدة «حسن الجوار» وفى سياسة « شيلنى واشيلك » فقلت له : سلامتك ، خير ان شا الله، فمد لى الروشتة ، وجدت نبش فراخ لم أتبين منه إلا رأس الكلمة والباقى ذيل طويل منحول الشعر ، الظاهر بين الإثنين أيضاً شفرة تستعصى على الدخلاء أمثالى .

فقلت له :

– كلمنى بالعربى لا باللاوندى ، ماذا بك ؟

– مسألة بسيطة جداً وخطيرة جدا فى وقت واحد .

— لا أعرف شيئا ينطبق عليه هذا الوصف إلا الوهم ، فبأى مرض تتوهم أنك مصاب .

— ليتنى كنت موهوما . فالوهم على الأقل لذيذ يجد فيه المريض تسلية كبيرة . ومن أجل هذا يحبه ولا يتنازل عنه ، المسألة أدهى ، إننى سرت منذ زمن طويل فى طريق لم أدرك أنه منحدر لأنه لاينحدر إلا قليلا قليلا قليلا يميل لا تراه العين ولاتحس به القدم حتى اصطدمت فى قعر هوة بسد من هواء فارغ انعقد على شكل ضباب كثيف هو أقسى من الطوب والحجارة ، لا أدرى متى بدأت ذاكرتى تضعف ، غير أن السوابق التى كانت لاشك قد زاد عددها ملأت الصفحة فألحت على أن أرحلها لصفحة جديدة ، حينئذ انتبهت أن فترة غير قصيرة قد مرت على وأنا عاجز عن تذكر الأرقام ، تصور أننى كنت أنسى رقم تليفونى ، وسليت نفسى قائلا ، لا ضير، الأرقام أمرها هين ، والحياة ليست كلها تليفونات وعناوين منازل ، يكفيك أن لك ذاكرة من حديد إذا كان الأمر يتعلق بالأسماء أو الوجوه ، فما من اسم علمته إلا بقى فى ذهنى ، يحدث أن أكون فى جمع من الناس وتأتى سيرة إنسان نعرفه فيتلجلج المتحدث فى ذكر اسمه ، فإذا بهم يروننى أقفز وأصرخ لهم بالاسم ، لا يفهمون أن سبب صرختى هو فرحتى بالمقدرة التى بقيت لى ، كنت حينئذ أشعر بنشوة كبيرة لأنى انتصرت فى معركة مع العدم او طلعت الأول فى سباق العدو لمائة متر :

وكذلك الوجوه : ما من وجه رأيته ولو مرة واحدة إلا تذكرته

ولو كان صاحبه قد غاب عنى الشهور الطوال ، ولا أنسى فوق ذلك لمن هو وأين ومتى قابلته ، إن صادفت رجلا طال غيابه عنى فحييته على الفور باسمه شعر بشيء كثير من الرضى عن النفس لأننى أعلم أن أكثر ما يرتاح له غرور الإنسان أن تناديه باسمه فى وقت لا يتوقع مثلك ذلك . إن كان من المعارف رقيته إلى درجة الأصدقاء ، وإن كان صديقا حمد لك أن اسمه مركب على لسانك كفص الخاتم وعاهد نفسه ان يخلص لك .

بل كان يحدث أن يتقاطع فى الشارع طريقى وطريق رجل نكرة قادم نحوى فأذكر على الفور أنه كان جالساً أمامى فى المترو ذات مساء فى العام الماضى ، ثق أن وجهه ليس فيه شيء يلفت النظر ، فأسأل نفسى وأنا أستبوخها . ما جدوى ذكرك لهذا الوجه ؟ حضر تلك غاوى وجوه . ومع ذلك أحس بسعادة كبيرة لمقدرتى الفائقة هذه .

الظاهر أن الذهن عمارة كل شقة فيها منفصلة عن الأخرى ، كنت قد قفلت شقة الأرقام بالضبة والمفتاح ثم انتبهت أننى بدأت عزال شقة الأسماء أيضا ، فخفت وحاولت وقف هذا الانحدار ، إذا نسيت اسما وبحثت عنه حتى وجدته بعد جهد أظل أكرره بلسانى مرة وأخرى إلى أن أتعب وقد يجف ريقى كأننى أتمتم بورد على مسبحة حتى يعتاده لسانى وينطبع فى ذهنى وأضمن ذكره إذا لزمنى ، فإذا لزمنى لم أجده. فص ملح وداب ، الظاهر أن مطبعة ذهنى أصبحت بالوظة تخرج النسخة الأولى مقروءة وان تكن مشلفطة والثانية نصف نصف

والثالثة بياض فى بياض كل شطارته ان يلتصق باليد ، الاسم الغائب لم يسقط فى الطريق ويضيع منى ولم يلهفه منى نشال ، بل هو باق معى ، داخل محفظة فى قعر شكمجية فى صندوق مختبىء فى مكان ما فى ذهنى ، الا تحس أحيانا أن ضرساً بين أخوين لايزال باقياً بفمك مع أنك تكون قد خلعته؟ هكذا كان شأن ذاكرتى ، الاسم معها وليس معها .

واخيرا أصبت بضربة قاصمة ، سكنت أثناء المصيف فى فندق فيه ثلاثة خدم ، أسماؤهم هى عيد وسعد وسعيد ، وبقيت فى هذه البرجلة شهرين قضيا على البقية الباقية من مقدرتى على تذكر الأسماء فماتت ولا أقول غير مأسوف عليها .

أصبحت بعد ذلك كأنما وضعت أسماء جميع خلق الله «كورجة» فى كيس ، فإذا احتجت لاسم لم يكن على إلا أن أمد يدى فيه فأى اسم خرجت به نطق به لسانى ، ولا تسل عن خجلى حين سلمت على صديقى وداد باسم عبد التواب وصديقى عبد المحسن قمر باسم طه عبد الباقى ، وكنت إذا نجوت بجلدى وأنا أسح عرقا أجد شيئاً من السلوى فى تدبر خفايا هفوتى وأقول لنفسى هل طلع هذا الاسم بمحض الصدفة لأن الأسماء هيلا بيلا فى الكيس ، أم أن هناك علاقة بين الخطأ والصواب : فأنت تعلم أننى من المغرمين بفرويد ، يزعم أن بين الاسمين صلة خفية لا يكتشفها إلا حضرته .

أصبحت أنسى الأسماء كالأرقام ولكن بقيت لى مقدرة فائقة على تذكر الوجوه .

فإذا بى لشدة دهشتى أجد أننى بدأت أنسى الوجوه أيضاً الظاهر أن النسيان كالسرطان ، يقابلنى رجل فى الطريق فيعانقنى معانقة أعز الأصدقاء وأنا أسأل نفسى. من هو ؟ أين قابلته ، وأحاول أن أسخن موتور عواطفى بسرعة لألحق عواطفه .

كنا حينئذ قد دخلنا الأجزخانة وتناول صاحبها الروشتة ولم يكد ينظر إليها وهى نصف مطبقة حتى قال :

— ٣٩٩ قرشاً .

فرفعت بصرى إلى اللافتة خشية أن تكون قد أخطأنا ودخلنا محل « باتا » — منذ بدأت التسعيرة حسابها بالمليم أصبحت الأسعار : ستة صاغ ونكلة أو خمسة صاغ تأخذ منها مشط كبريت .

واستطرد صديقى يقول :

وقعت فى حيص بيص ، وقلت لانجاة لك إلا أن تمثل دور من له ذاكرة من حديد ، ولكنى وضعت نفسى بذلك فى مواقف حرجة ، أسلّم على أحد المعارف — علاقتنا طيارى — باشتياق زائد كأنه أعزّ الأصدقاء فيدهش منى ويعجب ، وأعانق صديقاً بحرارة كأننى ألقاه بعد غياب طويل مع أننى أكون قد فارقته منذ لحظات قليلة ، وهكذا والظاهر أننى ممثل فاشل ،

فإن حياتى لا تنطلى على معظم من أقابلهم ، يظل الواحد منهم ممسكا بيدى وعيناه تبتسمان : أنت فاكرنى ؟ فعمدت إلى اختراع حيل جديدة فيكون أول سؤالى لمن ألقاه : أين أراضيك الآن وكيف حالك فى العمل ؟ أتمنى أن أجد فى إجابته بصيصاً يضىء لى ذاكرتى أو طرف خيط أجذبه حتى ينكشف لى آخره .

قلت له وأنا أرثى لحاله ومع ذلك سمعت صوتا خبيثا يقهقه فى قلبى .

— وماذا فعلت ؟

— لو أنصف الطب لما استسخفنى إذا قصدت طبيب عيون ، إنه يضع نظارة على العيون التى لا ترى ما هو كائن أمامها فإذا جميع الأشياء قد تبينت بفضل قطعتين صغيرتين من الزجاج ، لو وجدتهما فى الطريق لحسبتهما من سقط المتاع ، كنت أحب أن أذهب لطبيب عيون وأقول له إن ذاكرتى — لا بصرى — محتاجة إلى نظارة أشوف بها ستة على ستة أو ستة على اثنى عشر زى بعضه ، لأن جميع الأرقام والأسماء والوجوه باقية بلا شك فى ذاكرتى إنما المسألة أننى عاجز عن رؤيتها .

ولم أشأ أن أذهب لطبيب نفسانى ، يكرّهنى فيه مجرد التفكير أننى سأرقد كالقتيل على أريكة ويقف هو أو يجلس وراء رأسى ، فلا شىء يثير أعصاب الخط الأفقى إلا أن يتعالى عليه خط عمودى ،

فى عزمى إذا حكمت علىّ المقادير وقادتنى إليه ألا أذهب إلا وأنا متعب وبعد مشوار طويل لأستغرق فى النوم بمجرد رقادى، لاشك أن سريره أنظف وأرخص من سرير الفنادق البريمو .

وأخيرا ذهبت إلى طبيب مشهور بمعالجة الأعصاب ولكن حين رأيته حكمت أنه محتاج أيضاً إلى طبيب أعصاب .. ما علينا ، أعطانى هذا الدواء وقال لى : خذ منه حبتين على الريق بعد أن تستيقظ ، إياك أن يخلّ يوم وإلا ضاع أثر الدواء وكان عليك أن تبدأ « الكورس » من جديد ، ولا أدرى لماذا لا يجعلون الحبة الواحدة من هذا الدواء فى حجم حبتين إذا كان لا يوصف إلا هكذا ، ثم قال لى الطبيب كالعادة !

— عد بعد أسبوعين .

قابلت صديقى صدفة بعد ذلك فهجمت عليه وسألته :

— خبرنى عن علاجك ، هل نفع ؟

— برافو عليك، أراك تذكر لقاءنا الماضى ، أين كان ومتى !

وأدركت أن العلاج لم ينفع ، وقلت كأنى ألقى خبراً ولا أكتم حسرة :

— بين العيادة والأجزخانة .

— آه ، نعم نعم ، تذكرت الآن ، بالضبط منذ خمسة عشر

يوما فإنى خارج توا من زيارتى الثانية للطبيب .

— احك لى ما حدث بعد لقائنا الأخير .

- بقية الحديث مضحكة ، لم أدرك إلا بعد أيام من زيارتى الأولى أن هذا الطبيب من أسخف خلق الله ، تصوّر أننى أذهب إليه لعلاج النسيان فيطلب منى أن أذكر ضرورة تناول الدواء كل صباح ، لم أتبين هذا إلا حين عدت إليه اليوم .

وسألنى : هل فرغت زجاجة الدواء ؟

فقلت له : إنها باقية على حالها لم تمس ، فقال :

— لماذا ؟

لأنى كنت كل يوم أنسى تناوله ، إننى جئتك لتعالج نسيانى وترد إلى ذاكرتى فبأىّ شىء أذكر موعد الدواء إذا كنت تعلم أننى فقدتها ، ثم إن حضرتك اشترطت أن أتناوله على الريق ولو كنت سمحت أن أتناوله مع الأكل فلربما ذكرته على الفطور والا على الغداء والا على العشاء ، وفوق ذلك فان عبارتك هذه « على الريق بعد أن تستيقظ » قد برجلتنى ، فأنا أستيقظ أحيانا كمن لدغه عقرب ، أهب فوراً ، ما بين رؤيتى وأنا أتدحرج فى الفراش وبين رؤيتى وأنا أتدحرج فى الطريق إلا لمح البصر .

وأحيانا أستيقظ على مراحل مختلفة متصلة كشريط السينما البطىء .: تقلّب على الجنبين ثم فتح للعينين ثم نزول ساق واحدة ثم نصف قومة .: ثم تمط وتثاؤب .: لا يفارقنى النعاس وأنا أشرب القهوة

وأدخن أول سيجارة ولا أصحو إلا على صوت الكمسارى « تذكر وأبونيه » .

كان ينبغي أن تربط تناول الدواء بموعد أقل ميوعة ، ثم إن الناس تنقسم طائفتين : الأولى : تستيقظ حيويتهم فى الصباح على نار متقدة ثم تخمد شيئاً فشيئا فأسوأ أوقاتهم هو المساء ، والثانية تستيقظ حيويتهم فى الصباح وهي خامدة ثم تشتعل شيئاً فشيئا ، فأسوأ أوقاتهم هو الصباح وأنا من هذه الطائفة الأخيرة . ان هموم الدنيا كلها تنكفىء على رأسى فى الصباح بمجرد أن تسألنى زوجتى : ماذا نطبخ اليوم أما فى المساء فتجدنى رائق البال مؤجج النشاط .

زجرنى الطبيب وقال إنه من العيب أن أتصرّف كالأطفال وأمرنى أن أعود فأتناول الدواء فى موعده — وهذا ما نويته فعسى أن أنجح .

وافترقنا . .

ثم قابلته بعد ذلك فلم يكد يرانى حتى هجم وسلّم علىّ باسمى وانطلق يقول :

والله أيام ! فاكر لما كنت قاعد جنبى فى مدرسة أم عباس ؟ كانت لك بدلة بحارى مضحكة تكشف عن نصف ظهرك وكان زرارها الأسفل مقطوعا ، لا أنسى يوم ضربك عبد السميع أفندى

مدرس الحساب ، ولا الشيخ اسماعيل مدرس الخط ، الله يقطعه لم أقابله منذ أن تركنا هذه المدرسة ، رأيته أمس يمرق أمامي في أوتوبيس فإذا هذا الوحش الجبار قد أصبح حُطاما بالياء .

ذكر الأسماء كلها بلا خطأ وذكر عنى أشياء كنت نسيتها لأنها تافهة وعجبت له حين رأيته وهو يحدثنى يمشى بجانبى وهو يتوثب ، وعثرت قدمه بقطعة حجر فأخذ يدفعها ببوز حذائه ويميل معها حيث تميل حتى قطع بها معظم الطريق ، لو ترك وشأنه لدفع بها حتى باب بيته .

فدهشت دهشة منعتنى من أن أفرح له وسألته وأنا متوجس ؟

ـ ماذا بك ؟ ماذا جرى ؟

فصمت لحظة ولمعت عيناه بخبث ثم قال :

غافلت الطبيب ورأيت من الأفضل والأضمن يوم أذكر لأول مرة موعد الدواء أن أبلع الزجاجة كلها دفعة واحدة ، وهذا ما فعلته منذ ثلاثة أيام ، أصبحت لى الآن ذاكرة جبارة .

فقلت له :

ـ يا تحرق يا تمرق ؟ أصبحت الآن تجرّ الماضى قسراً إلى الحاضر وانهالت عليك توافه هذا الماضى لأنها كثيرة كما تنهال جدران الحفرة على عامل فى قعرها لم يحسن شقها ، لو أقيمت الآن مسابقة للحديث المملّ لفزت بالميدالية الذهبية ، إذا كان ضعف الذاكرة بلاء فإن فرط قوتها إذا لم تحسن استعمالها بلاء أعظم ، إذهب

إلى الطبيب من فورك واعترف له بما فعلت فلعله يجد لك علاجاً ثم قابلني وخبرني .

كان هو الذى جاءنى بنفسه هذه المرة ، وقال لى ان الطبيب أعطاه حقنة أعادته إلى سابق حاله ، فانه جلس بين يديه وهو مكسوف يسمع كلاماً كوقع السياط . قال له الطبيب !

ـ لاحظت فى المرة الثانية أنك تذكرت موعدى ولم تتخلف عنه ، فأدركت مرضك ولم أشأ أن أصارحك به ، ولكنى الآن أقوله لك بعد ما تبين من شططك أنك لا تنسى الشىء إلا إذا كان غير متعلق بشخصك ، والسبب الحقيقى لكل ما تنساه أنك غير مبال به لأنه لا يمس مصلحتك ولا يهدد بقاءك . فمرضك هو الأنانية والغلو فى جعل الدنيا كلها تدور حول محورك فدواؤك لا يتناول بالفم أو تحت الجلد بل ينبعث من الروح ، أنت فى حاجة لأن تحب الناس أكثر مما تفعل وأن تسوّى بين همومك وهمومهم ، حينئذ تسترد ذاكرتك وتكون خير معوان لك ، اتركها لشأنها ، ستنسى بنفسها كل الصغائر ولا تختزن لك إلا ما ينفعك فى معاملة الناس حين تحبهم .

فقلت لصديقى وأنا أضع ذراعى فى ذراعه :

ـ هو على حق ، وهذا ما ألحظه عند عديد من الناس ، يخيل إلىّ أنهم يتصورون خطأً أنهم فى معركة وهم فى خوف منها

ومن الهزيمة فيها فلا يجدون لهم من وسيلة لحفظ النفس إلا أن يحفروا خندقا ويقيموا من حوله المتاريس ثم يختبئون فيه ، لا يدركون ، بل ولا يعنيهم إذا أدركوا — أنهم يغوصون فى الوحل قليلا قليلا حتى تنزل رءوسهم عن مستوى الأرض ويفقدوا الرؤية كلها اللهم إلا ظلام الخوف فى ضمائرهم .

سافر صديقي بعد ذلك إلى بلد بعيد ولم أطمئن عليه إلا يوم وصلتني منه برقية رقيقة تهنئني بعيد ميلادى .

وكنت قد نسيت أننى ولدت فى مثل ذلك اليوم فما أهمية ذلك؟

(« المساء » : ١٩٦١/١٠/١٦ : ص ٨ ، ٧)

أى حاجة

يا فتاح ياعليم ، تلقفنى البواب على الصبح تلقف « داية لوليد تلقفه إليها هذه المرة عتمة بير السلم ، كادت رأسى تصطدم بصدره العريض – وستعلم السر فيما بعد – فوقفت قبل أن تهبط قدمى اليمين من بسطة العتبة إلى الطريق . فإنى أحرص كل يوم على ألا أخرج إلا بقدمى اليمين وبقيت وأنا مائل إلى الأمام معلقا فى وقفة ترشحنى عن جدارة لرقص الباليه والظهور على مسرح الأوبرا فى بنطلون طويل محزق ملتصق باللحم وهو بلون اللحم ، فيستر ولا يستر ، والذى يفضحه ولا يستره ألعن مما يستره ، ليس من العبث قولهم « إن الله يحب الستر » . ولو مر بى ثانيتئذ مصور فوتوغرافى متخصص فى رسم دخول « الجون » فى ما تشات الكرة وأخذ لى والشمس طالعة صورة مخطوفة على الماشى بفلاش يزغلل عينى لمدة ثلاث

دقائق على الأقل لاكتشفت أننى كنت حينئذ ــ على غير علم منى ــ فاغر الفم ، مع أننى غير مندهش إطلاقاً ، فحلاوة النوم لم تكن ذابت بعد عن أجفانى .

جمع البواب أصابع يده على هيئة كمثرى طالعة نازلة فى الهواء أمام صدره كأنه يحلب باستجداء ضرع بقرة عجفاء ثم مال إلى أذنى وهمس وليس هناك أحد يسمعنا : معندكش بدلة قديمة مستغنى عنها . لواحد زى حالاتى ، أنت عارف . .

فأدركت فورا وبدون حاجة إلى ذكاء خارق أنه موالس مع المكوجى ، وأنه على علم أولا بأول عن مدى نشاط غوائل الدهر والشمس والبقع والعرق والتراب على ملابسى ، وأى بذله من بذلى « يا جحا عد غنمك » سارع إليها البلى فنحل وبر ياقتها ونسل أكمامها وجعلها من لونين مختلفين : واحد باهت ظاهر للعيان ، وواحد داكن تحت طيات الياقة ، ولا صلة بين اللونين إطلاقا ، وأى بنطلون انبعجت كالخلاة ركبه ، وانخرقت جيوبه وخف مقعده حتى أصبح كالمنخل العمولة . . يحدث كل هذا فى الوقت ما أقصره ، لا فائدة إلا التحسر لو قارنت بين حالها اليوم وبين إعلانات الشركة التى صنعت القماش تطنطن به فى الصحف وشاشة السينما .

أدركت أى بذلة يريد البواب اصطيادها ، مغفل ! هيهات أن يصدق أن أقدم ملابسى هى أحبها عندى ، ليس أنا الذى ألبسها

بل هي التي تلبسني في غمضة عين ، انقطعت خشخشتها ، وتودكت كل عروة على زرارها ، ونعمت أظافر الليف الذى يحشوها فرقد واستكان ، الكتف هو كتفي لا كتفها ، وأصبح باطني والريح لا تشعر بدى وهى تدخل جيبا أنها تجوس خلال أرض مجهولة ، ولا تعلم وقت الزنقة أن تعثر على عود تسليك أسنان مختبىء كتهم منذ أن سرقته من مطعم ، جيوب البدل القديمة دافئة أبداً ولو كانت خرابا وجيوب البدل الجديدة باردة دائما ولو كانت عمرانة ، انعقد بيني وبينها صلح هي فيه مخلصة وأنا منافق فلا أستبعد أن أخونها في يوم وأسلمها بعد عمر طويل إلى تاجر الروبابكيا .

كدت أطبق فكا على فك وأبلع ريقي ، الحمد لله ، لم يستوقفني البواب ليبشرني بأن العمارة ستهدم . أو أن الماء سينقطع من الصباح للمساء لرابع مرة في الأسبوع أو يقول لى إن الساكن تحتي يشكو لطوب الأرض من دبدبة الأقدام في شقتي أو من زعيق خادمتي وأن الغسيل في بلكونتي يندع على بلكونته ، وقلت في نفسي . مسألة البدلة هينة ، وفي الوعود الكاذبة متسع للجميع ، وكدت كما قلت لك أطبق فكا على فك وأبلع ريقي : وأقول له :

— حاضر من عيني الاثنين ربنا يسهل .

ولكن فمي ظل فاغرا وأنا أتطلع إليه ، لا شك أنك علمت من وصفي له أنه عملاق ضخم بدين واسع الصدر لو مال على جبل لهده ، أما أنا فيسلكني الأصدقاء — ومن ضمنهم نفسي — بين

الطوال ، تكريما منهم وبسبب الألفة والعادة لا النظرة : أما عند بقية الناس فالحياء يمسكهم إلا أن يقولوا أن الأقزام أقصر منى ، فقلت للبواب وأنا أعانى أول دهشة فى ذلك اليوم .

— بدلة منى علشان واحد زى حالاتك ؟

— لا ، علشان ابنى محروس ، خدامك ، أصله جه من البلد امبارح مع أمه واخوته ، تعال يا محروس بوس إيد البيه الكبير بتاعنا .

فخرج لى من زنزانة الحبس الانفرادى القاطسة تحت حنية السلم صبى أكرش حافى القدمين أنفه صنبور نزاز ، وصدقنى — فليست هى مبالغة إذا قلت لك أنه حين وقف أمامى وجدته لا يبلغ ركبتى ، الصديرى وحده يصلح أن يكون له معطفاً ، هذا البواب إما يحرق وإما يغرق . فقلت له : وأنا أعانى الدهشة الثانية فى يومى :

— بداتى علشان إبنك ده ، دى ماتجيش عليه خليها بقى لما يكبر بسلامته .

فأسرع يقول وهو يضحك فى وجهى :

أنا ما بدققشى ، أى حاجة منك خير وبركة وبرضه تنفع .

وانطلقت مسرعاً زاعماً أننى أجرى وراء الأتوبيس ، والحقيقة أننى رأيت باب الزنزانة ينفتح ويقدم على — كأرانب — أم وزربة عيال .

وأخذت أقول لنفسي : كيف يعيشون جميعاً فى هذه الزنزانة ، لا شك أنهم يرقدون فيها بعضهم فوق بعض : أليس فى قلب صاحب العمارة ذرة من الإنسانية ، ولكن رثائى لهم جبه بسرعة رثائى لنفسى وأنا مفعوص وسط زحام الأتوبيس .

* * *

وفى الظهر دخل على صديق كان قد غاب عنى سنين طويلة تنقلت أثناءها بين عناوين مختلفة ، فى المسكن والوظيفة . فلا أدرى كيف عثر على ، قال لى بعد السلامات والذى منه :

ابنى يا سيدى مطلع روحى ، قاعدلى زى الهم على القلب بعد ما سقط فى الإعدادية سنتين ورا بعض ، عاوزك تشوف له شغله ولا تتوسط له عند حد من معارفك .

شغله ذى ايه ؟

رد على رد الذكى على المغفل أو المتعابط :

— أى شغلة . حاجة كده ، أى حاجة .

فكانت دهشة لى ثالثة .

وفى المساء كنت فى المقهى مع زمرة من الأصدقاء يلعبون الطاولة ، فإذا بهم قد رموا الزهر وقفزوا كأنما لسعهم زنبور ، وقال واحد منهم .

— الوقت جه ، يالا بنا ياجماعة على السينما .

قلت لهم : أنهو ، رايحين أى فيلم ؟

فكان ردهم على رد الاحلاب على المتحنشص .

— أى فيلم . أى حاجة ، اللى نلاقيه مش زحمة ؟

وكانت دهشة لى رابعة .

ولما عدت إلى دارى سائرا على قدمى كان جهاز راديو فى دكان بقال يسلمنى إلى أخ له فى مقهى ثم إلى أخ ثالث فى دكان فكهانى بحيث لم ينقطع عنى الكلام أو اللحن حتى حسبت أن المغنى ينشدها لى أنا بالذات ويلاحقنى بها . أتعرف ماهى هذه الأغنية ، إنها هى التى تقول :

— قولى حاجة ، أى حاجة !

أتكون «أى حاجة» هذه الشائعة بيننا تفسير ما أحس به وأنا أخالط الناس من أننى أعوم فى بحر أمواجه الدفاقة انقلبت ، إلى دوامات سطحية صغيرة معابثة تدور فى حلقة مفرغة ، لا تدل على شىء إلا الحيرة ، وأحس أن نفس كل شخص قد جف ريقها إما من الطمع أو الجوع الكاذب فأصبحت تتلهف على «أى حاجة» وهى لا تدرى ماذا تريد . فكيف بربك تقوم الشخصية وتثبت وتأخذ فى النمو ، إذا كان قيادها ملقى فى الهواء تقوده «أى حاجة» .

كتبت هذا الكلام مضطراً فاعذرنى لأن الصديق قال لى وقد أحببت أن أعتذر عن تأخير مقالى الأسبوعى لانشغالى بجيئى بلحبه من الصغائر والتوافه :

معلهش ولا يهمك ، أكتب لهم حاجة أى حاجة .

قُلّة وقُلّة بركة

سبحان من أودع فى كل قلب ما يشغله ، حكمة بليغة عتيقة ، ترجمتها الشعبية عندنا على الأرغول بصوت نحن وحدنا أبناء النيل نعرف كيف نجعل بحته أو حزقته — إذا كان المنشد صعيديا — تنطق فى وقت واحد بالجذل المتجدد والشجن الأزلى ، تقول : البحر واحد والسمك ألوان .

هى حكمة تحض على قبول هموم الحياة بصبر وقناعة وفلسفة لأن المساواة بين الجميع فى الهم فيها للفرد بعد الراحة ، ولكن هذه الحكمة ظلت فى نظرى ، كأخوات لها كثيرات ، حبراً على ورق ولم تثمر بذرتها فى أرضى (لعلها بوراً أو مطبلة) إذ — أولا : لا أعتقد أن تحملك أنت لهم يخفف عنى أنا همى ، ولو سرنا فى منطق هذه الحكمة لغايته لانحدر ببعض النفوس الضعيفة إلى خلط

الصبر بالشماتة ، ثم لأنى — ثانياً : أسألك من قال لك اننى أضيق بهمومى . . . ؟

لست بدعا بين الناس ، كل إنسان تنشأ بينه وبين همومه من طول الصحبة روابط ألفة حلوة ، وصداقة لذيذة ، يؤمن أنها هي شغلته ومشغلته ، حديثه وسمره ، أنها رأس ماله وثروته ، بل هي كل ما تملك يده ، ماذا يبقى له لو طارت عنه ؟ هي قوام شخصيته ، فلو أبرأه منها رجل صالح مستجاب الدعاء لعاش بعد ذلك بلا هم ، نعم ، ولكن أيضا بلا شخصية ، بلا ماض ، بلا تاريخ ، طيفاً خاوياً لا لون ولا قوام ، لو سألته كيف حالك؟ لخرس لسانه ، وحار ماذا يقول . . ؟

ولكن بقيت لتلك الحكمة فائدة ، فهى التى تجعلنى اليوم لا أخجل أن أعترف لك بهم لى ، أغلب الظن انك تعرفه أيضاً ، هو يتناولنى — شأن الصديق — برفق لا بغلظة ، ويحدثنى بالهمس لا بالصراخ ، ولكن الغريب أن هذا الهمس لا ينبعث إلا حين أطفىء النور ، وأعدل رأسى على الوسادة ، وأحيش جسمى فى قرفصته المعهودة استعداداً للنوم .

— تعال تعال يا حبيبى يا نور عينى (وهذه التريقة من عاداته المزمنة) ماذا فعلت بال ٢٤ ساعة الماضية التى مد الله بها فى عمرك ، كم من مرة قلت لك إنها على قلتها كنز ضخم ، غير موهوب لك عبثاً ، بل لتتصرف منه فى بناء قدرتك على النفع ،

حتى لو كان هذا النفع قاصراً على نفسك ، لا بأس ، فمن نفع كل فرد لنفسه ينشأ. نفع يعم الناس جميعاً ، قل لى : ماذا فعلت بهذا الكنز ؟ هل صرفته شأن العقلاء بحكمة ، أم شأن السفهاء بتبذير ؟ بفرتكة وراءها قلة بركة ، نثرته كما ينثر الساهرون فى الكباريهات هذه الشرائط والكرات من الورق الملون على رءوس الراقصين والراقصات، لو وضعنا فى يدهم مائة طن لاستهلكوه فى هذا العبث الفارغ فى ليلة واحدة .

حينئذ أراجع يومى ويتبين لى وأنا مكسوف أن الوقت تسرب منى كالماء من بين الأصابع ، حقاً إننى كنت أريد أن أضم يدى على رقبته لأملكه ، حتى لو خنقته ، ولكنى كنت كمن يطارد فى ساحة كبيرة لها سور واطئ دجاجة غير مقصوفة الجناحين هوايتها تتبع أنباء الأرقام القياسية للحفاة فى سباق الماراتون ، وأعترف أنى تصرفت بحماقة وأسارع إلى تلمس الأعذار فأجيب على الصوت الهامس « لا أعرف صاحبه ، هل هو إنسان أم روح أم عفريت هل هو لرجل أم لامرأة » وأقول له بتريقة أرجو لها أن تفوق تريقته :

— ياناصح يا فالح ، يا قاعد على البر ، تعال نتحاسب ، هل معك ورقة وقلم ؟ اكتب يا سيد الملاح : أولا ، ٤٥ دقيقة ضاعت على .

— وأنا أسكن مصر الجديدة — لأن عربة المترو موديل ماقبل الحرب العالمية الأولى تعطلت بنا . طبعاً ستقول لى : كان ينبغى لك أن تتركه وتضحى بثمن تذكرة لم يمض على دفع ثمنها إلا دقيقة واحدة لتركب الأتوبيس . . أو — إذا زدت فى التريقة — تقول لى تركب تاكسى ، ولكن أتعرف أين وقف بنا المترو ؟ فى قعر نفق غائر ، على جانبيه جدران ماساء عالية لا تستطيع نملة أن تتسلقها ، ولو رجعت إلى الوراء أو مشيت إلى الأمام على الزلط لوجدت نفسك محصوراً بين أسلاك شائكة كأنك فى معتقل ، بين الكمسارى والسائق حديث كالشفرة لا نفهمه ، نزل السكاكين . . . طلع السكاكين . . ماذا ؟ هل نحن فى المذبح ؟ ولاحظ يا أمير الأمراء أن الـ ٤٥ دقيقة فى الحبس فى هذه المصيدة أورثتنى من النرفزة ما أعجزنى عن كل تفكير صحيح لمدة ساعة على الأقل . اكتبها من فضلك فى ورقة الحساب .

ثم يا أخى هل تستكثر على أن أبعث اليوم بخطاب متأخر ؟ هل تعرف ماذا جرى لى حين دخلت مكتب البريد ؟ أولا هل لاحظت أم لا أن جميع مكاتب البريد تعيش طول عمرها — حتى فى عز البرد — فى جو خماسينى يكتم الأنفاس ؟ أقسم لك أننى أحس كلما زرتها أننى أدخلها بعد إعصار شديد نثر الحطام والخردة ونشر لواء القبح والدمامة ، والناس صفوف صفوف فى ذل شديد كأنهم وقوف أمام مكتب إسعاف يوزع الحساء وصبغة اليود ، الزهق

اختار فى مكاتب البريد محله المختار وإقامته المفضلة حتى أصبحت عنوانه الدائم ، إنه يهجم ويستحوذ عليك حالما تهل ، تراه رأى العين لاصقا كالغراء الزفر على الجدران والأرض ، وفوق الختامة المصابة بجفاف فى الحلق ، ويطل أيضا من فتحة رقبة البذلة الكاكى المهلهلة التى يلبسها ساعى البريد العجوز. وقفت أنقل ثقل جسمى (٦٨ كيلو) من على رجلى اليمين إلى رجلى الشمال وبالعكس ، أتقدم بسرعة أقل بكثير من سرعة ظل صنم على الأرض ، وحين وصلت إلى الكعبة قال لى حارسها (روح هات فكة) ثم اننى هممت بتمزيق الخطاب ، ولكنى لقيتها مطينة ، فزدتها طيناً ، ومن باب الانتقام من هذا المكتب الذى أقسمت ألا أدخله بعد اليوم إلا محمولا بقوة البوليس ، ومن باب الانتقام من نفسى لخيابة حظها ، ذهبت إلى مكتب آخر فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار يبقى ، كم حسابنا ؟ . نصف ساعة ضاعت على أورثتنى من الضيق ما يمنعنى من التفكير الصحيح ساعة كاملة : اكتبها أيضا ..

ثم هل تصفنى بالحماقة لأننى أردت أن أتكلم بالتليفون لا عشرين مرة ، بل خمس مرات فقط ؟ أرفع السماعة وألصقها بأذنى فإذا بوش جن يلاحقنى ، خمس دقائق ، عشر دقائق ، ثم يأتى الخط ، فما أكاد أمد يدى للقرص حتى ينقطع ، ويعود وش الجن خمس دقائق ، عشر دقائق ، ثم يأتى الخط وهو يلهث ، وأدير القرص ، توت

توت . توت النمرة مشغولة . . . وهكذا دواليك . . وكثيرا لا أفهم من أكلمه لأن خطنا اختلط بخط آخر نسمعه ولا يسمعنا إلى الآن لم أفهم سر هذه المعجزة . . العلم الحديث له تقاليع تعلو على ذكائنا . .

فاكتب فى الورقة أنى أضعت ساعة إلا ربعاً فى وش الجن وتوت توت . . . وأنها أورثتنى الخ الخ . . . لأن الزهق واحد والعلل ألوان . .

لن أكذب عليك فأقول انى ذهبت أيضا لحكيم أسنان ومكثت فى الصالون أكثر من ساعة ، أو إلى طبيب مشهور شرفت عيادته الساعة الرابعة بعد الظهر ودخلت عليه نصف الليل ، هذا يحدث لى أحيانا ، ولكنى أعتبره من النكبات السماوية وليس من العدل ذكرها فى الحساب ، ولكن ثق أننى كنت فى حاجة اليوم لقضاء شغلة فى مكتب حكومى ، لن أكرر كالببغاء الشكوى من الروتين والاضطراب بين موظف فى الدور الأول وموظف فى الدور العاشر ، لا ، قد دخلت على الموظف المختص فور وصولى ، وشغلتى كانت أمامه ، يستطيع أن ينجزها فى ربع ساعة . أتدرى ماذا حدث ؟ بعد التحية والسلامات ، وضياع وقت فى طلب قهوة — من جانبه بإلحاح خفيف ورفضها من جانبى بإلحاح شديد (لأن معدتى مقروصة من قهوة المكاتب الحكومية) ، من أى شىء تصنع ؟ من مادة عضوية أو غير عضوية الله أعلم ، لم نكد نفرغ من تبادل الحلفان حتى اندفع بلا سبب وبدون سابق معرفة يروى

لى تاريخ حياته بالتمام والكمال من الدرجة السابعة إلى الدرجة الثانية لا لشيء إلا ليبرهن لى على أنه مظلوم وليس فى يدى أية حيلة لإنصافه ، طلع روحى للدرجة أفقدتنى القدرة على أن أقرر هل أستسخفه أم لا أستسخفه ؟

فاكتب عندك فى كشف الحساب ساعة أخرى ضاعت على هباء .

وعدت إلى دارى وأنا أحس بإعياء شديد ، لم أعرف بسببه لغدائى طعما وأكلت الفاكهة قبل أن تعد المائدة وختمت الأكلة بالطرشى ، كل هذه اللخبطة صورة صادقة مصغرة للخبطة يومى ثم انهدمت فوق الفراش أؤمل أن تشفى القيلولة جسمى من اعيائه تمت ساعتين ، أنت وذمتك تحسبها أولا تحسبها فى الورقة عندك ، لم تنفعنى القيلولة بل زادتنى إعياء على إعياء وقمت زهقانا ولكنى صممت أن أبدأ أى عمل نافع ، فاختليت بفنجان قهوة وكتاب (وهذه الخلوة صعبة جدا فى بيتى) أريد أن أثقف نفسى ، لأشارك فى نقاش أزمة المثقفين أو على الأقل لأدخل نفسى ضمن من يدور الكلام عنهم . . فالصيت ولا الغنى . . فإذا بزوجى تأتى إلى غاضبة تقول : ماذا جرى لعقلك ؟ (تقول لى هذه العبارة أكثر من مائة مرة فى اليوم) هل نسيت موعد شلة أصحابك ؟

علم الله أن الصداقة بينها وبين زوجات هؤلاء الأصحاب أكبر بكثير من صداقتى لحضرات الأزواج . . كان يجب أن

فنذهب ، لا طلبا لمتعة ترد الروح ، بل أداء لواجب ثقيل ، هو رد دعوة منهم لنا سابقة .

وهكذا ضاعت الليلة أيضا . . لو عشت معى فى أوروبا لرأيت الفرق بيننا وبينهم : هم الوقت ملك لهم ، أما نحن فملك الصدف والتياسير . . نحن أبطال فى الفرتكة ، وقلة البركة .

أجابنى الهمس قائلا : هل تريد أن تتخابث على ؟ أنت حياتك مضاعة فى الفرتكة وقلة البركة من قبل أن تخرج من دارك . لأنك أنت وكثيرا من أمثالك يبلغ بهم الطمع والحماقة وأفن الرأى أن يرسموا لحياتهم أهـــدافا ، ولأنها أهداف فهى طبعا بعيدة ، ثم يقضون عمرهم يمزقون عزمهم وجهدهم من الحسرة على عدم بلوغها ، فهم لهذا السبب أبرع الناس فى تمزيق الوقت ، ولو أنهم تركوا الأهداف لمقاديرها وعنوا بشىء واحد وليس غير ، هو أن يجعلوا حياتهم يوما بيوم مليئة غنية لا نتفعوا ونفعوا وعرفوا أيضا طعم الهدوء والسعادة .

(« المســـاء » ، ١٩٦١/٧/١٠ ؛ ص ٦)

حكايات تريح القلب [٧]

يحدث لك ولا ريب ما يحدث لى ، فالعلة شائعة ، يقابلنى صديق مغموم كسير القلب فأحسب أن سماءه قد خرّت على أرضه ، فإذا كشف لى عن سرّه — وهذا أول شيء يفعله — علمت أن لكدره سبباً قديماً قدم الزمان ، هيّنا غير خطير ، ولعل شدّة وقعه راجعة إلى هوانه ، فإن الآلام الصغيرة الخبيثة أنخر فى الروح من الآلام الكبيرة النبيلة ، يقول لى :

— تصوّر ! فلان الفلانى زميلى منذ المدرسة الابتدائية وصديقى الروح بالروح ؛ كان لا يفارقنى ليلة بعد أخرى نسهر ونعربد معا (وأحياناً يضيف : وكنت أصرف عليه أيضاً) تقدّم به الحظ فأصبح وكيل وزارة وبقيت أنا لسوء حظى حيث أنا ، تصوّر أننى ذهبت إليه لأرجوه فى مسألة فقال لى سكرتيره إنه

مشغول ، فعذرته ، ولكنى قابلته اليوم صدفة فى الطريق ووقعت عينه على عينى ، ما فى ذلك شك ، فاذا به يشيح عنى بوجهه ويزعم أنه لم يرنى ، لعنة الله على الدنيا وعلى أهلها !

هذا الصديق له صورة أخرى مختلفة فى الظاهر ، ولكنه فى الواقع لا يختلف عن صاحبنا الأول . يقول لى :

— صديقى فلان الفلانى هذا منذ أصبح وكيل وزارة قطعت رجلى عن زيارته ، خشيت أن يظن أننى أتملقه ، وسأزوره حين يخرج من الوظيفة ويبقى زى حالاتى . . (ويضيف أحياناً من شماتة سابقة لأوانها : « الصبر طيب ») .

والحق أنه لا يخشى أن تلحقه تهمة التملق ، وحتى لو لحقته فما أسهل التخلص منها بأعذار لا يهتم صاحبها أن تخيل أو لا تخيل على سامعها ما دام فيها إرضاء ولو كاذب للنفس ، إنما يتوقع الكارثة فيسبقها ويتفاداها ، إنه يخشى أن يرجو صديقه فى مسألة فيكسفه .

إننى حينئذ أقف حائراً لا أدرى ماذا أفعل ولا كيف أقول ، الإجابة الوحيدة التى ترضيه هى أن أسبّ الزمان وألعن الناس وصاحبه من ضمنهم ، ولكنى لا أجد فى نفسى إقبالا غير منقطع على سب الزمان والناس ، لأننى أحب أن أعيش بإيمان أن الدنيا بخير أو بوهم أنها بخير ، ثم لا أجد مخرجاً من حرجى إلا أن أروى له حكايتين من الواقع لا من نسج الخيال .

فى ميلانو كتدرائية بها قسيس متعلم يشع من عينيه ذكاء وسعة حيلة وقوة إرادة ، هو فى أى أفق حلّ به أوسع منه ، وعلى جبل قريب كنيسة صغيرة بها قسيس مفصل على قدها ، لو خرج عن دائرتها لضاع وأسقط فى يده وتاه ، وكان صاحبنا الأول محبا للرياضة لا لذاتها فحسب بل لأنها تعينه على السهر الطويل فى الدراسة ، فجعل من عادته أن يتسلق هذا الجبل ، كل أسبوع مرة ، فيبلغ الكنيسة الصغيرة وهو مجهد فيجلس إلى قسيسها ويفتح منديله ويخرج طعامه ويدعوه إلى مشاركته ، يأكلان ويشربان ويضحكان ويقهقهان ، والقسيس الصاعد يجد لذة كبيرة فى الاستماع من فم صديقه إلى حديث ساذج عن الفلاحين والرعاة يلتمس فيه أيضاً راحة لذهنه من تطاحن أقوال الفقهاء فى رأسه ، إنهم قادرون على أن يقسموا الشعرة نصفين . وتمضى ساعة أو ساعتان ثم السلام عليكم وعليكم السلام .

ثم انتقل صاحبنا من ميلانو وانقطعت أخباره عن قسيس الجبل ، ومرت السنون ، وإذا به يسمع ذات يوم أن صاحبنا هذا قد اعتلى كرسى البابوية فى روما ، ففرح أشد الفرح وظن أن الدنيا قد أقبلت عليه ، لم يرسل إليه تهنئته ببرقية شأن العقلاء بل ترك عمله وصرف تحويش العمر فى شراء تذكرة الى روما وهو يمنى النفس بأجمل الآمال ، سيجلسه البابا على المائدة أمامه كما كان يفعل ويقهقهان معا كأيام زمان ، وسيقدمه الى جميع الكرادلة ، ويقول لهم : هذا صديقى ، وسيسأله فى نهاية اليوم

عن طلبه فإذا أخبره به أرضاه من فوره ، ولكن ما هو هذا الطلب؟ وى ! ان المزايدة لا تنقطع فى ذهنه ، كان أولا أن ينقل الى كنيسة بلده ، ليسعد بقرب أهله ، ثم أصبح أن ينقل الى ميلانو لينجو من وحدته وينعم بالمدينة الكبيرة ، ثم . ثم ماذا ، هل يطلب ترقية ، وأين ؟ ولكن أليس من حسن الذوق أن يكتفى بطلب نقله الى روما ليكون إلى جانب صديقه وى ، ماله لا يستقر . . اذن فليترك هذا الطلب الآن . انه حين يقابل صديقه البابا يفتح الله عليه وينطق فمه بما فيه الخير له ، من يدرى . . ربما عينه البابا من تلقاء نفسه سكرتيرا له . . فيتملقه جميع زملائه .

ولما وصل إلى روما طار إلى « الفاتيكان » ، لم يرعه منظر حراسه من السويسريين « ولعلهم من الإيطاليين » وهم عمالقة ، فى ثياب مزخرفة ، وبأيديهم أسلحة القرون الوسطى التى تخيف أكثر مما تجرح . . . ضحك فى سره وقال حين أهمس لهم أن البابا صديقى سيحنون لى الرءوس .

قطعوا عليه الطريق وسألوه : ماذا تريد؟ أجاب بلهجة متكبرة البابا صديقى وأريد أن أقابله .

لم يحنوا له رءوسهم بل نظروا إليه من الرأس إلى القدم ولم يفتحوا فمهم ، ولكنه أحس من وقع هذه النظرة أن قدره قد نقص قليلا ، سلمه واحد منهم إلى زميل فى فناء القصر فسأله : ماذا

تريد ؟ أجاب بلهجة أقل وثوقا وأكثر حدة : البابا صديق لى وأريد أن أقابله .

فنظر إليه من رأسه إلى قدمه ، أحس أن العرق يبلله . » وسار به الممرات الطوال إلى أن سلمه لقسيس فى مكتب فسأله : ماذا تريد ؟ أجاب وهو محنق يتصنع الصبر والأدب : البابا صديق لى .

فنظر إليه من رأسه إلى قدمه فأحس أن ملابسه قذرة جدا مع أنه لبس أنظف ما عنده . وسار به فى ممرات طوال حتى أسلمه لثالث وهذا لرابع وهذا لخامس ، أحس أن خاتمة المطاف عنده وكان ريقه قد جف فسلك زوره وقال بلهجة استعادت وثوقها : لو علـم البابا بخبر قدومى لأمر بدخولى عليه فورا ، البابا صديق لى :

فنظر إليه من رأسه إلى قدمه وقال له انتظر .

ومضت ساعة ثم ساعتان ثم قيل له ، « انتظر حتى يأذن لك البابا بالدخول عليه » ومضى اليوم ولم يصله الإذن فخرج يجرر أذياله ثم كان أول شخص يصل فى الصباح الى الفاتيكان ومكث الى المساء وخرج وهو مضعضع الجسم ، ومر يوم ثالث ورابع وأيام أخرى لا يعرف عددها . . وأخيراً جاءه الإذن فدخل على البابا فوجده كعهده به ، يشـع من عينيه الذكاء وسعة الحيلة وقوة الإرادة ، قال له البابا :

— أنا شاكر لك يا صديقى زيارتك لى ، ولكن ينبغى أن تعلم أن الأصدقاء تختلف اذا اختلف الزمان ! فوداعا وعد الى كنيستك ولا تتعب نفسك بالمجيء الى روما .

والغريب أنه شيع من الجميع باحترام لم يعهده منهم حين قدومه فصدقه وخرج وعلى شفتيه ابتسامة حلوة . . وإن كان قلبه يهمس له: ياخيبتاك ! لقد رجعت بخفى حنين .

والحكاية الثانية تروى عن جوته شاعر الألمان الأكبر ، وأنت تعلم أنه كتب قصة « آلام فرتر » وهو شاب يافع ، طلبا للشفاء من حب رومانسى عنيف حزين معا ، بطلته « شارلوت » وهى فتاة من أسرة طيبة معيلة ، رآها ذات مساء فى دارها مذعورة من عاصفة هوجاء يقعقع رعدها فرق لها قلبه وأحبها وانتهى هذا الحب كما يقضى المذهب الرومانسى بفاجعة شديدة وانتحر فرتر .

إننا قد نقرأ اليوم هذه القصة بصعوبة كبيرة ، ولا نتصور كيف أمكن لها أن تحدث كل ما احدثته من ضجة ، اشتهر جوته بفضلها وطار اسمه من ألمانيا الى فرنسا ، بل أصبحت هذه القصة إنجيل الرومانسية فى باريس حتى أن زعيمها شارل نوديه كان لا يرى الا ومعه نسخة منها مجلدة بحرير أسود ! هذا مع أن جوته قد طعن الرومانسية ووصفها بأنها أحلت المرض محل الصحة : الشبان فى ألمانيا يقلدون فرتر فى ملبسه وتصرفاته بل يقال ، ،

والعهدة على الراوى – أن عدد الشبان المنتحرين يأسا من غرامهم قد زاد بعد هذه القصة زيادة كبيرة . لا شك أن شارلوت كانت فخورة بهذه القصة التى خلدت ذكرها .

ومرت الأيام ، فإذا بجوته يصبح مستشارا لحكومته ، وتكون شارلوت قد تزوجت ورزقت بابن ، فلما أتم تعليمه رأت أن من حقها على جوته – وقد ألهمته قصته الخالدة – أن يجد لابنها ، وظيفة محترمة ، وبخاصة لأن أمورها تدور دورة عكس والزمان عصيب . إذا كانا لم يتقابلا منذ أول لقاء لهما فإن هذا الانقطاع من شأنه أن يزيد من قدرها عنده ومن لهفته على رؤيتها .

فسافرت هى وابنها إلى ويمار ، وطلبت مقابلة جوته .

إنها أرجعته إلى الوراء أكثر من أربعين سنة . جددت له ماضيه كله وكانت تحسب أنه سيلقاها وهو دامع العين ، حفى بها ، يسألها بلسان متلجلج عن أحوالها ، ظنت أنها ستجد فيه جوته الشاب الذى أحبها وتدله فى حبها حتى كاد أن يقتل نفسه ، فيرق لها قلبه ويتهدج صوته . ولكنه حين دخلت عليه وجدته لوحا من الثلج ، كأنما لم تكن أمامه شارلوت التى تمثل له شبابه كله ، وضع قناعا على عينيه ورفض أن يبصر ، ورفض أن يذكر ، مافات

فات ، مات إلى الأبد، قابلها باحترام ولكن بغير حفاوة ولا ألفة، كأنه يقابل زائراً كريماً لأول مرة .

ولكنه جبر بخاطرها وعين ابنها فى وظيفة .. . لا شك أن شارلوت خرجت من عنده وهى تقول تلك الكلمة التى كررها البابا من بعدها : إن الأصدقاء تختلف باختلاف الزمان .

(« المساء » : ١٩٦١/١١/٢٧ : ص ٨)

إلى أصدقائي السياح

لولا وثوقي من طيبة قلبكم وحبكم للابتسام لما وجهت إليكم هذه الكلمة فالسياح هم فى الأصل قوم يومهم نصفه عمل وإرهاق، ونصفه أشواق وأحلام، النشرات السياحية المصورة فى أدراج مكاتبهم أو تحت وسائدهم أحلام جميلة تشبه أحلام ورقة اليانصيب التى يشتريها المفلسون أمثالى. وقد خبرت بالتجربة أن كل أصحاب الأحلام أناس طيبون عاجزون عن فعل الشر.

أحب إذن أن أراكم تبتسمون حين أقول إنكم وأنتم تتفرجون علينا قد لا تشعرون أننا بدورنا نتفرج عليكم.

فأنتم جنس عجيب من الناس موجود من قديم الزمان لكن طبعه لا يتغير، جنس له فصائل مختلفة فى التفرج عليها متعة كبيرة.

الفصيلة الأولى: السائح عداد التاكسى، هو المغرم بقطع

المسافات ، تزداد سعادته بقدر زيادتها ، حسابه بالآلاف من الكيلومترات لا بالعشرات أو المئات ، تذاكر سفره مجلد ضخم ، وجواز سفره أطلس جغرافى ، لا يستقر فى بلد يوما إلا أزمع السفر لبلد آخر ، لو نطقت حقائبه لا شتكت من شدة القلقلة وإسراعها إلى الشيخوخة من كثرة الفتح والقفل . . حياة هذا الرجل تنقضى فى السيارات والقطارات والمطارات ، إنى أعرفه ، إنه يمشى منطلقا كالسهم ، جذعه مائل للأمام ، أراه فى المطارات فى الساعة الثالثة صباحا وهو مورد الخدين مفنجل العينين وأنا شاحب محمر الأجفان ساخط على الدنيا أتثاءب وأتمنى أن أجد فى المطار فراشا أتمدد عليه ، فأحب الأوضاع عندى لجسدى هو الوضع الأفقى ، إنى أقترح أن توضع فى المطارات كما على ظهور السفن كراسى طويلة ، ولكل كرسي بطانية ومخدة .

هذا الرجل ليس فشارا ولا نخاعا ، ومع ذلك إذا توقفت به الطائرة نصف ساعة للتزود بالوقود فى مطار بومباى (وهو فى خلاء يبعد عن العمران ككل المطارات مع الأسف بأكثر من ٣٠ كيلو مترا !) جرى لشراء كروت بوستال وأرسلها إلى أهله وأصدقائه يقول ثلاث كلمات عظام « تحية من الهند » ثم يروى لهم عند عودته « وزرت الهند أيضا ! إنها كانت رحلة طويلة » .. إنه رجل من ديدنه إذا سافر من طريق أصر على أن يعود من طريق آخر . . وحبذا لو كان أطول ، وحتى لو كان مستعجلا ، سأعطيك عناوين الكتب التى يجب قراءتها « ١٠٠ ساعة على ظهر

حصان » و « ١٠٠ ألف ميل فوق المحيط بين القطبين. » وغاية أمله أن يكتب هو مؤلفا بعنوان « حول العالم فى أسبوع » .

وكنت أنا فى وقت من الأوقات من هذه الفصيلة ، لكن قلة موارد‌ى جعلتنى أعدل عن القارات إلى الجزائر ، فنزلت فى جزيرة يونانية فى شرق البحر الأبيض—هى جزيرة ميداليين— لا لكى أشاهد آثارها، بل لأجوبها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، واستأجرت حمارا ، أريد أن أقلد روبرت لويس ستيفنسون بعد أن قرأت كتابه « رحلات مع حمار » ، وكنت أعددت للحمار بذلة ركوب سوارى ؟ فى اليوم الأول مشيت بين حقول القمح من اليمين وحقول التبغ من اليسار وصعدت الهضاب ونزلت الوديان، وحين أتى الليل نمت - أو لم أنم من كثرة البعوض — فى حجرة تعلو دكان بقال ، وفى اليوم الثانى وجدتنى أسير بين حقول القمح من اليمين وحقول التبغ من اليسار وصعدت الهضاب ونزلت الوديان وحين أتى الليل كنت ضيفا على بقال.. ومر اليوم الثالث كالثانى. والرابع كالثالث ، فقدمت استقالتى من هذه الفصيلة العجيبة من فصائل السياح . وعدت إلى الميناء لأخرج مع الصيادين لصيد السمك . . وبقيت جالسا فى القارب طول النهار ، فى موضع لا يتحول وهذا هو جزاء غرامى بقطع المسافات .

لحسن الحظ سيجد هذا السائح فى بلادنا ما يصبو إليه ، وكأن أجدادنا الحكماء عرفوا طبعه فلم يقيموا أفخر معابدهم على شاطئ البحر

بل فى أقصى جنوب الوادى ، فإذا زارها هذا السائح أضاف إلى قائمة الحساب فى غمضة عين ألفين من الكيلومترات على الأقل . . مبروك عليه .

الفصيلة الثانية السائح البالون ، الرجل المغرم بأن يقعد على قمة أعلى علم فى المدينة ولو كان مدببا ، له صورة و هو على قمة الهرم (وهى لحسن الحظ ليست مدببة) وصورة على قمة برج إيفل ، وصورة على قمة برج بيزا ، وإذا كان أمريكيا لا أظن أن له صورة على قمة ناطحة السحاب ستيت إمبير ، إنه فى بلده ليس سائحا ، لذلك هو يتركها لزملاء فصيلته وبنى جلدته من الغرباء . . وهذا هو شأنى فأنا إلى الآن لم أصعد إلى قمة الهرم وإنما سعادتى أن أتفرج على السياح وهم يصعدون إليها أقول لنفسى دائما « غداً ، وإن غداً لناظره قريب » .

هذا الرجل يصعد بالأسانسير ، فإذا لم يجده صعد على قدميه ، إن ركه لاتعرف التعب ، ورأسه لايعرف الدوار ، أخشى ما أخشاه أن يطالبنا هذا الرجل بأن نركب أسانسير على الهرم الأكبر ، وهو لايدرى أننا إذا فعلنا حقت علينا لعنة الفراعنة الذين يهمهم المحافظة على جلال الهرم وروعته لا على إيراد متحصل من بيع التذاكر . . فلا بد لك يا صديقى أن تطلع بقدميك ، وأنصحك أن تحسب الزمن الذى لزمك للطلوع والنزول ، فعندنا رجل يصعد وينزل فى ٦ دقائق ! إن صاحبى يصعد لا لأنه يريد أن يطل على شىء ، أو يشهد شروق الشمس أو غروبها ، إنه يصعد أحيانا كثيرة فى عز الظهر ، إنما

يفعل ذلك لأنه يريد أن يضرب رقما قياسيا ولأنه عبد ، لإلحاح شديد غريب فى نفسه ، بأن يصعد ويصعد حتى ينفرد عن العالم والخلق كله .

لهذا السائح بشارة عندى ، فقد أقمنا فى القاهرة برجا يعلو عن الهرم بأربعين مترا ، وله مصعد ، وفيه مطاعم ، وهأنذا أنتظر صورته فوق هذا البرج الذى لا بد أن ينار بالليل حتى تهتدى به الطائرات .

وكنت أنا فى وقت منتميا إلى هذه الفصيلة ولكنى قدمت كذلك استقالتى منها بعد زيارتى لمدينة فينيسيا ، فقد صممت ألا أغادرها إلا إذا صعدت لقمة برج كنيسة سان ماركو. فصعدت وما كدت أصل ومن قبل أن ينقطع تلهثى أو أن أبلع ريقى حتى بدأت الأجراس الكبيرة تدق بأعنف قوتها ، كأنها كانت فى انتظارى . أحسست أن جميع مضارب الأجراس تدق على رأسى ، ولولا حلاوة الروح لرميت نفسى من البرج وأزعجت حمام الميدان ، الأليف إزعاجا لا ينساه طول حياته . . . ومنذ ذلك اليوم تبت عن الصعود .

الفصيلة الثالثة : السياح القوافل ، الذين لا يمشون ولا يركبون ولا يدخلون المتاحف ولا يأكلون إلا فى قطيع ، وراء دليل فى

يده خيط سحرى يجذب به وجوههم وعيونهم جميعا فى وقت واحد فتدور كما يشاء مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، ومرة إلى تحت . . هذه الفصيلة هى أصلب أنواع السياح أعناقا ، وأحب فى أحيان كثيرة أن أغافل الدليل وأندس وسط هذه القوافل فى المتاحف . وأشهد حربا خفية بين الدليل والقافلة ، حربا هى أشبه بلعبة الكاش كاش (الاستغماية) الدليل يجذب عيونهم بخيطه السحرى إلى صندوق مغطى بالزجاج فلا تستقر لحظة حتى تزوغ إلى اليمين أو اليسار أو إلى فوق أو إلى تحت . ولهم حق ، فما فى الصندوق إلا قطع مفتتة من فخار كأنك كسرت فيه إبريق شاى فلاحى ، هذه الفصيلة أسراب الطيور المهاجرة حين تحط فوق الأشجار والسلوك والأسطح وتملأ الدنيا بضجيجها ثم تذوب كفص الملح وراء الدليل أيضا . هذه الفصيلة هى التى تحتل المطاعم والفنادق والملاهى وتطرد عنها أهل البلد طردا . . رأيت أتم صورة لاحتلالها لبلد وأنا فى باريس فى شهر أغسطس ، حتى كانت نصيحة الأصدقاء لى إذا أردت أن أقول لهم فى شارع الشانزليزيه كلمة سر أن أقولها بالفرنسية .. ويخيل إلى أنه لو انفصل واحد من هذه الفصيلة عن القافلة لأحس بانزعاج شديد وأصبح لا يدرى ماذا يفعل بنفسه ، هذه الفصيلة هى أحدث الفصائل جميعا ، ويخيل إلى أنها من سلالة أمريكية ... فأمريكا هى البلد الذى يورد لنا كل المستحدثات .

ولو أننى لست من هذه الفصيلة إلا أننى أحبها ، لأنها هى التى

أنزلت لذة السياحة من احتكار الأثرياء والأغنياء إلى أوساط الناس أمثالى ، ان قلبى قريب إليهم ، ولم يساورنى طمع فى أن أحدث سائحا إلا من هذه الفصيلة .

الفصيلة الرابعة : السائح المكتشف : وهو أكثر السياح كسلا لا يحب أن يستيقظ على جرس منبه أو دقة تليفون من مكتب الفندق بأن الدليل وصل وأن جميع رفقائه قد نزلوا . . فهو يحب أن ينفرد بنفسه لأنه شديد الثقة بنفسه ، لا يهمه فى شىء أنه لا يعرف كلمة واحدة من لغة البلد ، وكما ينفر من القوافل لا يهتم بقطع المسافات أو بطلوع الأبراج ، إنما غايته الأولى هو أن يستكشف ما لم يكتشفه أحد من قبل . . هو بالرغم من أنه غريب فى بلد مجهول يتصور نفسه أنه متنكر Incognito فهو يخرج من الفندق متلصصا كنجوم السينما ، لا يريد أن يراه أحد أو أن يسأله «إلى أين أنت ذاهب ؟ » إنما هو يقول لنفسه ، سر إلى حيث تقودك قدماك . . على بركة الله .) هو الذى تراه فجأة فى أماكن لا تحلم برؤيته فيها ، فى أحد الأحياء البلدية ، وحوله جمع من الناس يحاول ان يحدثهم بلسانه فيجيبون عليه بلسانهم فلا يتفاهمون إلا بأصدق الوسائل وأقدمها : « تبادل الضحكات » . . هو فى طبعه لا يحب إثارة الضجة أو لفت الأنظار ولكنه فى الحقيقة رغم تنكره أكثر السياح إحداثا للضجة ولفتا للأنظار .

هذا السائح إذا عاد لبلده لا يحدث أهله وأصدقاءه عن القاهرة

ومبانيها ومتاحفها بل عن « روح القاهرة » أو « طابع القاهرة » وعن عدد المرات التي تاه فيها وهو إلى ساعة حديثة لا يدرى كيف عاد بعدها إلى الفندق ، وهو لا يقسم البلاد التي يزورها حسب الموقع الجغرافى أو حسب الديانة أو اللغة ، بل تارة بحسب روائحها وتارة بحسب ضجيجها ، وتارة بحسب سحنة أهلها ، هل هي مبتسمة أم متجهمة . . فهو رجل يحب الاستكشاف ، والنفوذ إلى المعانى واستخلاص العبرة من التفاصيل ، وهو أكثر السياح عرضة للوقوع في خطر لذيذ . أن يتخلف في بلد تعجبه ، أو أن يعود إلى اهله وقد زادت حقائبه حقيبة هي زوجة معلقة بذراعه تحيي أهله برطانة أعجمية

أرأيتم أصدقائى السياح . . . إننا أيضا نجد متعة في التفرج عليكم ؟

(مجلة « الكاتب » : العدد الثانى ، مايو ١٩٦١ ص ٧٠)

۲

البسلطة والشجرة

حكاية قديمة تعود إلى ذهني وتلح على أن أرويها لك من جديد :
داخت الأرض وهى تدور فى الملكوت أول مرة ، بصرها زائغ وهو يلف ويبشر بالبرق ، يدها على الرجة لا تحس ما تملك . سر خلقتها — والعهد به قريب — انبهم عليها من شدة دوران رأسها ، فى ضميرها الطفل سؤال ينغر كالجرح : أهى لا تزال فى حمى ربها أم أصبحت منبوذة من رحمته ، وهل صفير دورانها نغمة ناى فى لحن مشترك أم أنين منبعث من ضال هيهات أن يجد له هدى ، ليس لديها للاجابة على هذا السؤال همة أو صفاء ، لابد أن تنتظر أجيالا عديدة حتى يهبط الوحى .

وقليلا قليلا ألقت دوختها وانتظمت عليها حياتها ووعيها وملكت

قياد بصرها ويدها ، لوكفت عن الدوران للحقتها من الاستقرار دوخة أخرى من نوع جديد .

التفتت حينئذ إلى كنوز أحشائها ، رأت بذرة محتشمة لأنها حبلى فسألتها : ما أنت ؟ أجابت : أنا سر النماء ، أم الزهر والثمر ، أنا الظلال الوارفة ، لن يصفو الجو لحى إلا بفضل أنفاسى ، أنا الخير والزينة ولا أعرف اسمى بعد .

قالت الأرض لها :

— أخرجي للنور فى نعمة من رضاى ، إننى سأتباهى بك .
فانبثقت على سطح الأرض شجرة عظيمة ، تجللها من الدهشة فرحة لن تزول عنها أبداً ، جذع كالطود تتشبث جذوره بالثرى ، وأغصان ترفع أكفها للسماء وفروع تفننت فى أشكالها ، أما اللعب فقد بقى للورق ، وانطبعت فى قاموس الكون أولى كلماته : سلام ودعة وحنو وخير وبركة وجمال .

ثم التفتت الأرض فرأت كرة من اللهب تموج وتتوثب . قالت لها : ما أنت ؟

أجابت : أنا الغيظ ، أنا عكارتك . ألا ترين قلبى من حديد ؟

قالت لها الأرض : أعوذ بربى منك ، لا هناء فى صحبتك ، ان بطنى نظيف ، أغربى عن وجهى وأنت فى نقمة منى . أنت سبتى ، عليك اللعنة .

فانطلقت إلى الجو كرة اللهب كأنما ركلتها قدم ، لها ولولة

ستقتبسها شياطين الليل فيما بعد ، ثم انزرعت على وحل غير بعيد من الشجرة ، فخرق الارتطام قلبها .

انقلبت الولولة إلى صرير أسنان من الغل والمهانة عرف الكون فيه لأول مرة كيف يكون الجؤار والزّحير (١) .

ومضت أيام عضها الجوع بعدها بنابه ، إنها مجتثة الجذور مفطومة من ثدى الأرض ، فأخذت تأكل لهيبها حتى هبطت هالته وانشقت حمرته القانية وأصبحت غلالة باهتة ستكسو فيما بعد وجه كل محنق ، ثم صهدا باخ شيئا فشيئا حتى لم تصبح بعد بحاجة التوهج إلا قطعة ذليلة من حديد بارد قلبها مثقوب . . هكذا ولدت أول بلطة كسيحة .

رنت ببصرها فوقع على الشجرة لأول مرة ، فارتج من الحسرة قلبها ، انها محملة بالزهر ، ألوانه من الشفق ، يطلع عليها الفجر فتمنح نفسها للندى وتهز طربا ، ويأتى عليها المغيب فتتمطى وتنعس وهى تسبح ، بين الأوراق والجذور من سر الحياة عصارة طالعة نازلة ، معمل لا يكف عن الحركة ليس له دوى بل حسيس يحسبه الغافلون صمتا .

وقالت البلطة لنفسها وهى تهدهد حسرتها : لا بأس ، هذه عاجزة مثلى محرومة من الحركة .

---

(١) الجؤار : رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة ؛ والزحير أو الزحار : اخراج الصوت أو النفس بأنين من عمل أو شدة .

وهمت أن تغفو لتنسى جوعها فاذا بها يقلقها دبيب يطرق سمعها كنبش الأظافر ، لا يكل ولا يمل ، ما هذا ؟ انتبهت فأحست بجذور الشجرة تسعى وتمتد فى بطن الثرى ، وأدركت أن هذا النبت النحيل ، له وهو يشق طريقه قدرة على ثقب الصخور القاسية .

فقالت نادية فى سرها : ويلى ، هيهات أن تجوع ، الجوع لى وحدى يا ضيعتى .. ولكن لا ضير . . إنها عقيم مثلى .

وهمت أن تغفو لتنسى جوعا لها يشرخ جفاف حلقها فاذا بها يزعجها صوت قذيفة كأن لها وقع الرعد عليها ، أى شيء هذا ؟ تلفتت فهالها أن الشجرة تلفظ بقوة ، وكأنما عن عمد وغرض مقصود ، عن بطن زهرة لها بذرة هي ذرة ضئيلة ، حملتها الرياح بعيداً عن أمها قليلا ثم تهادت وانغرست وتم بينها والأرض لقاء ولود .

كاد الحنق يفتت البلطة لولا أنها من حديد ، حتى لو ماتت الغريمة طال عمرها أو قصر — وإن عمر هذه اللعينة لابد سيطول — فستجد وراءها من يخلفها ويديم عزها ويخلد سيرتها . أما أنا فماذا بقى لى ؟

قال لها ضميرها الأسود . الانتقام ! ! فنطقت على الفور بتحية رقيقة ألقتها على الشجرة فسألتها :

— من أنت ؟

لم تقل لها أنا البلطة . بل أبقت سرها مكتوما وأجابت ،

أنا أختك قطعة الحديد ، خرجنا من بطن واحدة ؛ أنا لم أسألك من أنت كما فعلت معى . لأنى أعرفك ، وهل يخفى القمر؟ هناك فرق بينك وبينى ، أنت حية وأنا كسيحة ، هذه سنة الكون ؛ ليس لى أن أناقشها بل أقبلها على الرأس والعين لأنى مؤمنة ؛ لكن هذا الفرق لا يمنعنا من أن نعيش فى صحبة جميلة ، أخلص لك وتعطفين علىّ .

ألقت أول درس فى النفاق سيتناقله عنها البشر من بعد : ألا تخادع بالكذب صرفا ، بل تقول من الصدق نصفه ليعينك انبهار السامع بجماله على إخفاء دمامة الصف الثانى المختبىء فى صدرك . إن أردت أن توقع برجل فابدأ أولا بمدحه ، إنه سيستنيم لك فتمكن بذلك لطعنتك .

وحسبت الشجرة أنها نجوى أخت لأخت ؛ لا بأس أن يتحدث بها قلب إلى قلب ويكشف عن أشجانه ، فما نفع الأخت إذا عجزت عن أن تعين على شقاء الأشجان ؟ فهمست لها الشجرة بصوت حنون .

ـ لا عليك ، هونى الأمر ، قد علمتنى تجاربى الماضية ، وهى طويلة ، أن أقتل حماقة هى تغليب حكم اليوم الحاضر وحده على الزمن القادم كله ، إنه فى علم ربنا ، ورحمته لن تنقطع ، واعلمى أن سنة هذا الكون من حولك أن يسير من حسن

إلى أجسن ، قد تقابله صعاب وقد تصادفه نكسة ولكنه سيتغلب عليها ويعود للسعي وقد اشتدت قوته وزادت خبرته ، بلواك أنك في أول مراحل التكوين وهي فترة عصيبة ينبغي الصبر عليها إن أردت أن يطلع عليك غد مشرق ، ثقي؛ انني أرى الغيب ، سيجيء عليك يوم تمتد لك فيه يد صناع فتشفيك من كسلحك وتجعل منك آلة نافعة في السلم توضع في محراث فيشق الأرض ويكسوها ببساط من سندس ، نافعة في الحرب أيضاً إذا لزم الدفاع عن النفس ، ولن تخلو الدنيا من الاعتداء ، ستصبحين سيفاً بتارا ! في يد الحق ، بفضلك ينهزم العدو وينمحي العار وتسترد الكرامة والشرف وأما أنا فإني معك ، لايسعدني شيء أكثر من أن تتوثق صحبتنا وصداقتنا ، سأحدثك كل يوم من أجل التخفيف عنك بقصص رواها لي الدهر .

أجابتها البلطة :

— ليس عندي يا حسرتي ما أحدثك به إلا جراحي وآلامي، لا تخطئي نظرتي الشاخصة إلياك ، إنني حين وقعت رقدت ووجهي مائل عنك فلابد أن أدير نحوك عيني فإذا رأيت بها أحياناً بريقاً فاعلمي أنه من فرط لهفتي على التحدث إليك .

ضمنت بذلك ستر هفوتها إذا زل ضميرها وبان في عينيها . وأساتذة النفاق يحسبون للمستقبل كل حساب ولايتقدمون إلا إذا أخذوا منه الضمان ، يمالئون المنتصر ويمالئون خصمه المهزوم

فقد تعود إليه الغلبة فى يوم فيذكر لهم فضلهم فى العطف عليه زمن محنته .

أخذت الشجرة تروى لها كل يوم طرفا من قصص الدهر ، ذخيرة خلقت لشفاء النفوس ، كيف يغفل عنها الطعين وهى البلسم لجراحه .

أما البلطة فتحدثها — لترقق قلبها — عن الظلام والحريق والضياع والانفراد والوحدة والرعب من المجهول ، والخوف من تألب الأعداء وحين تستنفد جعبتها تتحدث عن قناعتها التى نراها دعامة آمالها الكبار فى المستقبل .

كل هذا والانتقام مستعر فى قلب البلطة ، بلغ من أجيجه أن أصبح له عقل يدرك وينصح فهمس لها :

— إن طرفك لحسن الحظ فى ممر الريح ، أنت لا تعرفين قوة هذا المخادع الذى يزعم أنه محض هواء ضعيف ، إنه ينقل الجبال ويهدم الأطواد (١) ، لن ينقطع عنك إلحاح له كالمبرد هو الذى سيسن لك حدك ويهبك قوتك ويضع فى يدك سلاحك ، ولو استطعت أن يخرج من ضغنك لسان ولو كان رقيقاً كلسان الأفعى فالعقى به أنت أيضا حدك بالليل فى غفلة من الشجرة ، إذا طلبت من الزمن عونا فأعينيه أنت أولا .

وكانت الشجرة تستيقظ أحيانا بالليل على صوت لحس لسان

(١) جمع طود ؛ وهو الجبل العظيم الذاهب صعدا فى الجو .

الأفعى وهو أشد خفاء من صوت حك مبرد الريح ، لأنها تسمع بضميرها لا بأذنها ، فتسأل جارتها ،

– ماذا بك ؟ أى شيء تفعلين ؟

فتجيبها البلطة وهى تلهث وتتلعثم :

– إننى أتكتك من البرد ، ولولا أن غياب وجهك عنى يشقينى لكنت سألتك أن تطرحى على حفنة من أوراقك تغطينى ، إننى أفضل الموت من البرد عن أن أحرم من رؤية طلعتك البهية .

بلغ النفاق فى اطمئنانه لنجاحه أقصى مداه فهفا وجاوزه ، وكادت الريبة تلحقه ، وكل بادئ بنفاق غيره ينتهى بنفاق نفسه .

وأحست الشجرة لأول مرة بشيء من القلق وذبلت بعض أوراقها وسقطت قبل الأوان ، ولكن الربيع كان قادما بخيله ورجله ومواكبه وأعلامه ، فنسيت فى عيده أوهامها ، وعادت تروى لجارتها قصص الدهر بصوت أكثر عمقا واتزانا .

وزاد احتراس البلطة وأحست تكتمها ، وقالت لنفسها: لا ضير أن أصبر سنة وسنتين ، بل ثلاث سنوات . بل العمر كله من أجل أن أبلغ فى يوم هدفى .

كفت عن أن تلعق الحد بلسانها مادامت نأمته (١) توقظ الشجرة من سباتها واكتفت بمبرد الريح .

---

(١) النأمة : الصوت الضعيف الخفى أيا كان .

وجاء الموعد الذى صبرت له وأصبح طرفها لامعا قاطعا كحد السكين كان يوما وديعا من أيام الخريف ، النسيم ترياق والسحب تتمشى كالبكارى على مهل ، شفافة الثوب ، فقالت البلطة للشجرة :

ـ تذكرين يا أختى يوما قلت لى فيه إنك ترين الغيب وأن يدا صناعا ستنقذنى . هاهو ذا الصدأ يكاد يأكلنى ويفنى عمرى ولم تتقدم لى يد ، لا صناع ولا غير صناع ، لن يبقى إلا القليل حتى أودعك ونفترق ، والموت أطيب لكسيح مثلى من حياة مشلولة .

قالت لها الشجرة : وماذا تريدين ؟

أجابت : أنت ملتفة الأغصان والفروع ، وهبك الله منها ما يفيض عن حاجتك أليس فى هذا دعوة منه إليك بأن تجودى بفائض على غيرك من المعسرين والمحرومين ؟ ماذا عليك لو بعثت لى بعود من أغصانك إذا ثبته وسط قلبى أصبح لى بمثابة قدم أسعى عليها فأستطيع حينئذ أن أزورك وأطوف بحرمك .

قالت لها الشجرة : أهلا وسهلا ، هذا مناى .

واصطفت من غصونها عودا صلبا مستقيما وتحاملت على نفسها لتقصفته وانتزعته من كيانها ، وألقت به فوقع فى قلب أختها حيث تريد ولم تكد تفعل حتى دبت البلطة على الأرض ثم اقتربت من الشجرة بتأن وقليلا قليلا كأنها تجرب المشى أول مرة ، ثم إذا بها

تهوى على الشجرة بطعنات مجنونة حانقة متتالية تريد أن تجتثها من على وجه الأرض . وصرخت إليها :

ـ الآن نعرف من منا هو الأقوى . . طالما تعاليت على وأنا صابرة .

سقطت القشرة وبان للشجرة لحم زكى الرائحة يسيل منه دم قان وقالت وهى تشد أليافها حتى تصبح كالصخر الصلد :

ـ كان هناك صوت فى قلبى يهمس لى أنك أنت البلطة ، فلم أصدقه لأنى لم أكن رأيتها من قبل ، الآن عرفتك يا أختى . »

(« المساء » ، ١٩٦١/١٠/٩ ، ص ٤)

الحكاية وما فيها

سأروى تلك المسرحية من طقطق لسلام عليكم ، هى مأساة سأحاول التخفيف من حدتها إشفاقا بك وإن أغضبت يوسف وهبى . لنبدأ أولا برفع الستار :

الديكور : حى بلدى .

وأنت حر ، إنما هو حى متوسط العمر فى أطراف المدينة ، غير بعيد من قرافة ، الإسم مسبوق بكلمة « خارطة » — وهى كلمة غريبة مفصلة من أجله وحده ، المنازل متلاصقة فى صف واحد يحاذى الطريق بمثابة سور من طابق واحد ، فلا تزال متماسكة ، اللون الغالب هو البياض ، لأن المنازل من حجر وبغير طلاء ، وكذلك التراب أيضا ، أبيض ناعم كأنه طحين طباشير لوثته تلاميذ علق الحبر بأصابعهم ، فى الجو خليط من رائحة حريق القمامة

وقماين طوب (١) ودبغ جلود وتنفس قبور اقتربت ولم تصل بعد للفناء ، رائحة يشعر بها الغريب لا أهل الحى ، للأطفال هنا ضراوة واعتداد بالنفس ، زلنطحية ، لأن مجال اللعب أمامهم فسيح ، الدكاكين منادر ، والبضائع المعروضة - من حيث الكم والكيف - مقيسة على قدرة أهل الحى ، لا يشترى الغرباء منها شيئا ، إنه عالم مستقل منفصل ، قانون الحياة عنده ليس هو التنازع بل التباعد ، هناك إحساس بأن لا أحد يسأل عن أحد ، لأن كل واحد وإن اقترب بجسمه من الآخر بعيد عنه بروحه كل البعد بسبب مشاغل الدنيا ، مرور النعش - ولو لعروس - لا يثير أقل اهتمام ، الفقر هنا جلده خشن ، كسطح الحجارة النيئة المقتطعة من محجر قريب لم تجد بعد من يصقلها ، فجوات الإثنين كأنما من قرص القمل والبق والبراغيث وإن انفرد أهل الحى بلذة حكها ، إذ أن العشاء يغلق الأبواب ويضئ الفتايل ويطلق السعال ، لا تظهر ليلة القدر لا فى أحلام اليقظة ولا فى المنام .

وإما هو حى قديم ، داخل أسوار المدينة ، تجد خبره فى الجبرتى ، منازل من طوابق متعددة ، بير السلم كحل ، والدرجات نصف متر والحجرات أكثرها مسروقة ، منازل بسيسة ، تقف بقدرة قادر ، وبفضل تساند بعضها وبعض ، أعمى يطلب من أعمى أن يأخذ بيده ليعبر معه الطريق ، هى أوقاف تحمل أسماء شركسية

(١) القمين : الموضع الذى يرص فيه اللبن (أى الطوب النى) ويحرق ليصير آجرا (طوب أحمر يستخدم فى البناء)

وتركية ومصرية ، أسماء لها رنين كشلنى زجاجة عطر فارغة ، ماركة «مية القسيس » نسيت فى قعر صندوق وفجأة (على طريقة يوسف ادريس) مسجد هو تحفة وإيه ، من حقه أن يمسح بمنديل من حرير ويوضع على صينية من ذهب ، اللون الغالب هو الرمادى ظل سحب من الذباب ، والتراب أغبر لزج من الرطوبة ، والرائحة خليط من مرحاض وتعفن زبط (١) وقمامة وجثة قطة ، وبهارات وكسب بذر كتان فى سيرجة (٢) غير بعيدة، الأطفال عليهم ذل الأسرى فى معسكر اعتقال ، الفقر هنا جلده ناعم ، كقماش زكيبة أبلاه طول الامتهان ، الحياة هنا ليست تنازعا ولا تباعدا بل هى زحام وامتزاج واختلاط ، روك ووسية (٣) ، ومع ذلك لا يحس أحد بأحد لأن كل واحد قريب كل القرب من الآخر فلا يرى فيه إلا نفسه ، حيان مختلفان ولكن يجمعهما على الفقر قانون نصه كالآتى : المادة الأولى والأخيرة : لا يسأل أحد عن أحد .

إن أردت أن تطلق على هذا الحى اسما رمزيا يشير بالكناية وحدها إلى ما فى المأساة من ذبح وإراقة دماء فسمه : الدرب الأحمر . .

---

(١) وحل .

(٢) معصرة زيت السمسم المسمى سيرج

(٣) الروك : كلمة قبطية معناها قياس الأرض بالفدان وتثمينها أى تقدير درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها . والوسية : أرض مشاع ليس لها مالك .

فى حجرة واحدة قلما يقفل لها باب . . يعيش على البلاط كوم من اللحم يطلق عليه تجوزا وصف أسرة ، الأم لأنها خائفة من الطلاق ملخومة دائما وإن زعمت أنها شملولة ، وأن يديها وصوتها لهلوبة ، ترى ربكتها وهى تلبس الملاية اللف ، أو وهى تسير بها فى الطريق ، لا تبدأ عملا وتتمه أو إذا أتمته طسلقته ، والأب رجل منهك الجسد ، ينبغى أن يخرج كل يوم ليظفر برزق اليوم ، يوهمنا بكلامه أنه يتمنى فى قرارة نفسه الموت لزوجه بل للأسرة كلها ، تحية لهم صباح مساء : جاتكو مصيبة ، جاتكو داهية ، طلعتوا روحى الله يطلع روحكم . ثقل العبء لا يجعله يفكر كيف يحتمله بل كيف يتخلص منه ، كيف يهرب أو على الأقل كيف ينفض يديه ويستقتل لهم ، بدأ تدخين الحشيش علاوة على السجاير ويزداد أحساسه تبلدا وتتحول « جاتكو داهية » إلى « خفوا عنى إرحمونى ، شوفوا لكم صرفة ، شوفوا لكم شغلة ، سيبونى فى حالى » .

وفى يوم يرقد لهم فى البيت مدعيا المرض أو أن الأسطى طرده ، ترهن زوجته حلة وتطبخ زفرا ، بدل اللوم ، وجد مكافأة وبدأ يستحلى تلقيح جتته عليهم ، وفى القهوة يضع رجلا على رجل ويضرب الدنيا طبنجة .

عند رفع الستار نسمع ابنته تصرخ ، ونعلم أن زجاجة اللمبة نمرة (٥) جرحت قدمها وتجيء مسرعة وهي تبكي إلى حضن أبيها فيحنو عليها ويكتم الجرح بالبن ، ويبحث فى جيبه عن قرش تعريفه يعطيه لها ويطبطب عليها ويقبلها .

هى فتاة صغيرة ، سن ١٢ ، فى جسدها سر غريب يحيل الفول والطعمية والعدس والفجل والكرات لحما مدكوكا ، لها قذارة ودفء أرنب فى خن بلاصى ، أصابع قدميها غير مضمومة لأنها تمشى حافية ، سبابتها طالعة نازلة تحك بظفرها منبت شعرها الكث موضع قرص القملة ، ومع ذلك فالشباب يقهرها ويجللها بابتسامته الغامضة ويدلق عليها من كوز شرباته البلدى : سكر ، خالص مذاب فى ماء خالص ، ليس فيه حتى ماء ورد ، من أثره أصبح الفص الفالصو فى أذنها حلوا ، ونور على رأسها كزهر الفل زيق أبيض من قماش رخيص تعقد عليه ضفيرتها ، ولكن فى كيانها مع ذلك خللا لا تلحظه العين وتحار أين هو ، كأن محور اتزان جسمها أو روحها قد مال شذوذا عن يمين أو يسار ، لعل الذى يوحى بذلك هو تقوس ساقيها قليلا والطريقة السمجة التى تمضغ بها اللبان وتطرقع به ، هو كيان لا يشكو من جرح ، بل من عض إن يكن رفيقا إلا أن له بفضل اتصاله قدرة على التفتيت وحل الروابط ، الأسنان المدغدغة هي أصلح اداه لفك تماسك عقدة أو تمزيق طرف ثوب .

الابن سن ١٠ دلوعة أمه لأنه صبى على بنت ، تحبه أخته أكثر من حبها لأمها وابيها ، هو مثال الرجولة فى نظرها ومنطلق غريزة الأمومة فى قلبها ، هى التى حملته أكثر من أمه على ذراعيها تحرم نفسها من الأكل لأجله ، بسبب دلعه لا يفلح فى صنعة ويتحول إلى متشرد أو بلطجى .

يزيد رقاد الأب فى البيت لا بسبب المرض أو الطرد ، بل يقول لهم بصراحة أنه طهقان منهم ومن الدنيا كلها .

تخرج البنت للشغل وتأتى بأجرها ، قذف بها فى وسط لم يجد احد للآن تعليلا يفسر كيف يجمع فى آن واحد بين متعة متاحة سهلة وبين جوع جنسى لا ينفد ، قطة صغيرة خرجت على السطح فتجمع عليها من الذكور ، الجربان والمتوحش والبجح ، زنقت فى ركن ، وهصر ثدييها ، وانطبعت على فمها وهى كارهة قبلة سببت لها غثيانا وإن استرخى لها جسدها وهزته نفضات كالرعشة وغاب سواد عينيها ، وفاحت لها رائحة كالعرق المصنن ، الغريزة الجنسية وهى وعاء من بين أوعية أخرى لأكبر نعمة من نعم الله ، نعمة الحب بين رجل وامرأة ، تقابلها لأول مرة مقترنة بالقرف والقسوة والافتراس ، هذا تمهيد لقبلات ، لها قادمة لا تبالى بفم أبخر أو طرشان خمر الطافية ، حتى الفتى الخجول الذى زعم أنه ميت فى دباديب رجليها قد هجرها بعد أن قضى منها وطره ، متعللا بأنه

سمع من آخر أن زميلا قد سبق له أن قبلها ، وبان الحمل وجئ بالفتى روميو فأنكر ثم اعترف (لأن خجله جبن) وتزوجها بدون مهر ، وتم الطلاق بعد أسبوعين .

فتاة الـ ١٦ سنة أصبحت امرأة اختصرت فى سنتين تجارب عمر ، اثبتت لها أنها فى معركة ، هى وحدها ضد الجميع والجميع ضدها ، دنيا كل شاة فيها من عرقوبها معلقة .

* * *

الفصل الثانى

تخرج للشغل من جديد ، بعد قليل تنقلب الجلابية المخططة إلى فستان مشجر ، وحذاء الغورية الذى ينفح برائحة دباغة رخيصة تزكم الأنف إلى حذاء من أول الموسكى ، من مشمع له رائحة المدبغة ، وفجأة رآها أهل البيت فرحة لأنها لا تأتى لهم ويدها فارغة ، بل تحمل لحما ودجاجا وتجلس تضحك ملء فمها وهى تقول لأخيها « خد دى والنبى كمان » ثم تدس فى يده مصروف جيبه .

طريق سهل ، وخطوة تقود إلى خطوة ، ويد إلى يد ، طريق حسبته مضموناً مأمونا لأنها تقول : « الدنيا كلها كده » .

---

(١) العرقوب : وتر غليظ فوق العقب ، وفلان معلق من عرقوبه كناية عن استقلاله ومسئوليته الكاملة عن تصرفاته .

ولكن لا تسل عنها يوم ضبطها البوليس أول مرة . حسبت أن الدنيا تطربقت فوق دماغها ، وأنها لن تستطيع أن تعيش بعد هذه البهدلة وهذه الفضيحة ، وفكرت أن تنتحر ، ولكنها وجدت نفسها فى حشد من المجربات هون عليها الأمر فهان بعد قليل . منذ ذلك اليوم لم تعد تبالى بشىء ، أنسل آخر خيط من قناع حيائها ، حتى لو سال الدم للركب ، وحتى لو ضرب بلطجى يعشقها غريما له بسكين يتفلق الاثنين .

الأم هى التى تفتح لها الباب حين تأتى متأخرة . لتدخل خلسة وتطبطب عليها كصاحب الفرس بعد مشوار طويل ، وتقول للجير ان أن بنتها شغالة فى مصنع تريكو فيضحكون فى سرهم . للأم غصة تنحدر أحيانا من حلقها إلى معدتها إلى أقدامها ، وتختلط عندها مع الحسرة على خيابة أمل زوجها والإعياء من شغل البيت ، فتزعم لنفسها أن الإعياء والتحسر ضاعا فى الغصة ، وأن ، الغصة ضاعت فى الحسرة والإعياء ، الأسرة التى انهدم عليها بيت فماتت إلا واحدا منها لم يبك ، فلما سئل قال : أبكى على مين والا على مين ..

الأب الآن لا تنقطع من يده نقود تكفيه يومه على القهوة ، ولكنها لا تزال قليلة ، والابن زاد دلعه وإلحاحه فى طلب النقود .

كانت تدفع لهم ما يكفيهم ، ثم نامت على عقد ميثاق

حياد ، هم فى حالهم لا تسألهم شيئا وهى فى حالها كل ما يطلب منها أن تقوم بواجبها ، وبعد قليل وجدت أن الكفاية معناها الفنجرة والتبذير ، وزادت الطلبات فدفعت أيضا ، الريال أصبح لا يقنع به الأخ ، إنه يطلب نصف جنيه ، ورويدا رويدا تحولت الشفقة وأداء الواجب إلى مصلحة وسياسة ، كأن يدها وهى تدفع تقول لهم بصوت عال غير مسموع : لأكسر عينكم وأؤمن حياتى من غدركم . .

ميثاق الحياد تحول إلى ميثاق عدم اعتداء ، لا بين أصدقاء ولكن بين أعداء . . هذا هو طريق الانفصال ○

* * *

الفصل الثالث

لم يبق لوجودها فى البيت معنى . فخرجت واستقلت وجاءت بعمة فقيرة تخدمها وتأكل لقمتها من عرق أحضانها ، وتكتسى فوق البيعة يوم العيد بثوب جديد تفرح به كالأطفال ،

كانت ق. أصبحت فتاة متمدنة تفهم فى المودة والرقص وأنواع الخمور ، عاشرت الطبيب والمحامى وتلاميذ الجامعة ، وعرفت شيئا من السياسة الدولية ومجموعة ضخمة من النكت البذيئة ، حذاؤها الآن بكعب ألمنيوم من شارع قصر النيل كل شياكته أنه يعقر قدمها وأصابع هذا القدم لا تزال رغم حبسها الطويل غير

مضمومة بلى ثوب الفتاة الشغالة ولبسها ثوب يفرزها عن الحرائر والعفيفات وبدل علها أينما ذهبت وحيثما جلست ، حتى وهى فى المايوه . يحسبها الرائى وسيمة فإذا تأملها رجد ميل محورها القديم قد فضح دمامة تجللها من الرأس للقدم وتنبع من النفس ، ترق فى أول الجلسة غاية الرقة حتى لتحسبها إنسانة مهذبة تبكى شفقة للدجاجة مذبوحة ، فإذا غولطت فى الأجر بان لها وجه غليظ متجهم ينطق بالشراسة والقسوة والبغضاء ، وجهها لوح رسم ملامحه إزميل قو ى خدها نصل لامع .

لم ينقطع مددها للبيت ولكن بحساب تدفع مرة وتصهين مرات تقول لنفسها : عينهم فارغة وليس لطلباتهم نهاية ، ولوكان فى النية إيذائى لفعلوا منذ زمن ، والعمر أمامى مجهول والدهر قاب ، فتشترى الأساور : زينة وتحويشاً ، يصلها بين الحين والآخر تهديد من الأب ومن الأخ فلا تبالى لأنها جربت أكثر من مرة أن هذا التهديد يتحول بالدفع إلى رضى وسكوت . انفصالها عنهم سبب اطمئنانها ، ولكنه يتحول أحيانا سبباً لخوف مفاجىء يملأ قلبها ، كان حقها عليهم من قبل حق البنت على أبيها وعلى أخيها ، ولكن أى حق بقى لها الآن ؟ الشكر على الإحسان ؟ الإحسان كما يكسر العين يثير الغيظ وشهوة الانتقام ، نحن لا نسألك إحسانا يا بنت الكلب ياساقطة . . بل ثمن سكوت على الشرف المهدر ، إن سعره غال فى سوق حتتنا ، تشترين الأساور وتبخلين علينا ؟

هذه الأساور ملك لنا تلبسينها عارية ، إلى أن نأخذها فى يوم عسير جملة لاتقسيطا : .

لما أحست بذلك حبست يدها عنهم ، لها رب اسمه الكريم، يدهش جلساؤها أحيانا حين يرون دمعة تطفر فجأة من عينيها ، فتمسحها مكحلة بأصبعها أو بطرف منديلها ، يظنون أن الأغنية المنطلقة من المذياع وكلها أنين ونواح هى سبب تأثرها ، أو أنها تخفى عنهم قصة حب قديم .

وكان الأب قد تفسخت روحه قليلا قليلا حتى غاضت الشفقة من قلبه ، إنه الآن لا يعرف كيف يكسب رزقه ، ولو عرف لما قدر ولو أراد ، وقع بيته فجلس بين حطامه ، خير شىء يفعله أن يلتقط حجرا ويقذف به ، لا يبالى من يصيب ، الدنيا عنده أصبحت بزرميط(١) ، فكل نذالة معقولة ومقبولة . لو بقى له إحساس لخجل من الكلب العقور لأنه أفضل منه وأكثر إنسانية .

وفى ليلة تحمر عيناه من الخمر والحشيش ، يتسال فى يده سكين ، إنه يريد أن يخرج بنته من الحياة ويخرج نفسه قبلها من الحياة لأنه يرتكب جريمته بحماقة ويكشف سره للبواب ، ويخرج وفى جيبه الأساور ليبيعها بثمن بخس ، ويهنأ بليلة فنطزية (١) قبل يوم القيامة ، يجد شيئا من الخدر ونفسه تخادعه :

---

(١) غير مقيدة بانطلاق حسب هواه

ـ ستقف أمام القاضي وترفع رأسك وتقول : دفاعا عن الشرف . . سيصدقك الناس فعندك ألف دليل .

يا هل ترى لحظ وهو يذبحها تحت النجفة الكبيرة وبجانب الأباجور الأحمر أثر جرح من زجاجة لمبة نمرة (٥) في قدم من كانت ذات يوم صبية ارتمت بين أحضانه ؟

ماتت وهي نائمة ، لو أتيح لها أن تنطق لأشاحت عن أبيها ووجهت كلامها لربيبة نعمتها وقالت :

حتى أنت ياعمتي . . تشتركين في المؤامرة . .

(« المساء » : ١٩٦١/٩/٢٥ ؛ ص ٦)

فضائل فى الثلاجة

● سرحان فى ايه ؟

لم أكن سرحانا فى تصور النعيم الذى أعيش فيه لو كسبت لوترية أو لو ... اسمح لى أن أكتب عنك بقية الكلام ، لئلا أفضح لك أحلام يقظتى ، إذ أحب ألا يضحك أو يندهش لها أحد سواى وإنما كنت سرحانا فى تأمل هذا الشعور الغامض الخفى المتخلف فى قلبى بعد معاشرة أنماط مختلفة من الناس : وشيئاً فشيئاً يتكشف هذا الشعور الغامض عن إحساس واضح بأن حياتهم يكمن فيها كالقيح غلط مستور ولكن ما هو — يا ربى — هذا الغلط ؟ .

الذى لاشك فيه عندى أولا أن هذا الغلط المستور هو وحده

مرجع شقائهم فى الحياة وفقدانهم لذة التمتع بمباهجها ، وسبب اضطراب أرواحهم وانزعاجها رغم الهدوء الكاذب على وجوههم ، بل هو علة ترددهم بين الرضى عن النفس ومقتها ، هو مصدر ما يتضمنه مسلكهم من متناقضات يعسر تفسيرها ويعسر بالتالى الحكم عليهم هل هم أخيار أم غير أخيار .

أود بادئ ذى بدء أن أؤكد لك أن الذين أتحدث عنهم هم أناس من معدن طيب ولاريب ، نفوسهم غير فاسدة ، وأنا من المؤمنين بأن الإنسان مفطور على الخير لا الشر .

● الغلط ..

ولكن الغلط الكامن فى حياتهم ليس هو انكارهم للفضائل وصدقها واعتماد الشرف والكرامة عليها ، ولا شكهم فى قدرتهم على التمسك بأهدابها ، ولا يأسهم من جنى ثمارها ، بل هو وهمهم أن هذه الفضائل التى يؤمنون بها هى مع ذلك شىء يمكن أن يوضع فى الثلاجة ليحتفظ بسلامته ، ويرجع إليه فى الوقت المناسب وعند اللزوم ، لأنهم أصبحوا على يقين بأن هذه الفضائل لا تنفعهم – بل تضرهم – كسلاح يخوضون به معركة الحياة فى مجتمعهم على هذه الأرض ، وعذرهم هو تأكدهم أو خشيتهم

من أن الغير يحاربهم بسلاح من نوع آخر لايمت إلى الفضيلة بأدنى سبب ، ينبغى لهم أن يقابلوه بمثله وإلا هلكوا ولا يرثى لهم أحد .

طالما قيل لهم بإلحاح – كأنها حكم شريفة أثبتت التجارب صدقها – إن الطيبة ضعف ، وأن الذى لا تدوسه يدوسك ، واتق شر من أحسنت إليه ، فى الوعود الكاذبة راحة وبراعة وسياسة حكيمة ، الغاية تبرر الواسطة ، الطعن فى الظهر مباح ودليل ذكاء وحنكة ، امش مع الريح ، سوء الظن من حسن الفطن ، احذر صديقك ألف مرة ، لا شىء ينفعك غير قرشك ، كل واحد فى الدنيا يقول : يالا نفسى ، ليس للنقود رائحة حتى تعرف هل هى زكية أم منتنة الخ الخ .

فهؤلاء الناس يضعون الفضائل فى الثلاجة ليخرجوا بسلاح آخر للقتال فى معترك الحياة ، وفى وهمهم أنهم سيجدونها إذا عادوا إليها سليمة تنتظرهم . أتعرف متى ؟ فى ذهنهم : موعد قريب ، وموعد بعيد ...

موعد قريب : إذا خلوا لأنفسهم بعد المعركة ، فلا بأس للدنىء الكاذب المنافق بالنهار أن يصلى العشاء بخشوع فى المسجد ، إنه لا يجد تناقضا فى مسلكه ، على غير ما يظن الناس ، فهو صادق فى الحالتين ، هو نعم المحارب بالنهار ، نعم المتعبد بالليل ، أو إذا خلوا لأهلهم ، فهذا الدساس الذى كان لعضته فى النهار أكبر الأذى لأحد زملائه يؤدب ابنه فى البيت لأنه فتن على الخادمة ،

الابن ليس له عذر لأنه لا يخوض مثل أبيه معركة مريرة .

أما الموعد البعيد فهو يوم النصر، إنهم يترقبون هذا اليوم الذى يظنون أنهم سيملكون فيه القوة والاستغناء عن الناس ، إما عن طريق الثروة أو الجاه ، فى يوم النصر سيضعون أسلحة المعركة جانبا ، أما الآن فذهنهم يقول لهم : لا ضير أن أضع الفضائل فى الثلاجة ، سأعوضها عن إهمالى يوم يجىء النصر، يومئذ سأخرج هذه الفضائل من الثلاجة وأجلوها وأضع فوق رءوسها أجمل التيجان ثم أفرش مأدبتى على قارعة الطريق وأدعو كل من مر يشاركنى أنسى ، الصدر الذى أغلق مصراعيه من قبل سينفتح لهم يومئذ فإذا هو أوسع رحاب .

أكاد أحس لدى بعض هؤلاء الناس حين يشيحون عن شحاذ يسألهم قرشا قولهم له فى سرهم : مهلا مهلا يا صديقى ، حين أصبح غنياً سأعطيك وأعطى كل محتاج بدل القرش جنيها كاملا ، هذا هو تفسير قولهم له وهم يصرفونه : « ربنا يعطينا ويعطيك » يبدءون بأنفسهم قبله ، فالإحسان عندهم كبقية الفضائل موضوع فى الثلاجة إلى أن يتحقق لهم الانتصار فى المعركة وتملك القوة .

● الموقف يزداد تعقداً ! •

ويزداد موقف هؤلاء الناس تعقداً حين يصيبهم أيضا داء خبيث فتاك .. هو الخوف من الحياة ، من العسر ، من الفاقة ، من التشرد ، من الضياع ، من الذل والكسوف أمام الناس ، الخوف من الغد ، من المجهول ، من القدر ، فيزداد اعتقادهم بأن الفضائل ينبغى ألا توضع فى الثلاجة فحسب بل فى « الفريزر » ذاته من داخل داخله ، والعجيب أن هذا الداء — لأنه من ثمار الحضارة الآلية — يصيب الأذكياء قبل الأغبياء ، والمثقفين قبل الجهلاء .

من معارفى موظف فى إحدى الشركات ، هو شاب موهوب بلغ الذروة من العلم والنباهة ؛ متعدد الملكات ، لو وزعت على عشرة لأغنتهم ، قادر على أن يجعل الغير يحبه بلا جهد من الطرفين ، حرت زمنا فى تفسير نظرته المقشورة البراقة النفاذة ، تجد عديداً من أمثالها فى أوروبا وقليلا فى بلادنا فنحن أرباب النظرة المنكسرة عن ضحالة أو حياء .

وفرق نظرة صاحبنا جبهة وضاءة تشع من اتقاد ذهنى بديع ، ظننت أول الأمر أنها دليل ما يتمتع به من وثوق بالنفس يبلغ أحيانا حد التبجح ، ولكن صوتا خفيا كان يقول لى : يا رب . . أين

رأيت أخت هذه النظرة ؟ نعم .. رأيتها فى عين الطائر حين يتحول جسده كله إذا لمح الخطر من نعيم الراحة إلى عذاب وتر مشدود، وتمتد رقبته كأنها تلسكوب ينفرد إلى آخره، حينئذ تبلغ نظرته أقصى ماتقدر عليه من تيقظ ولمعان هذه هى نظرة صديقى ، ليست نظرة الوثوق بالنفس ، بل نظرة خوف الطائر إذا لمح الخطر ، حتى ولو كان هذا الخطر موهوما .

وصديقى هذا لاينقطع رزقه ، بل يزداد سنة بعد سنة، فيزداد - يا للعجب - خوفه لأن الوقوع من فوق ليس كالوقوع من تحت ، هى حلقة مفرغة لعينة ، إن أجهل قارىء كف أوضارب رمل يستطيع أن يؤكد له أنه بفضل مواهبه العديدة سيظل أبداً فى نعمة موفورة .

دهشت ولم أدهش (أى والله هكذا) حين علمت أنه بلا سبب أو داع ولا لرد هجوم أو خطر - تطوع بتقديم عريضة للسلطات التى فى يدها حق القبض والرفت يستعديها فيها على زملائه أجمعين ، إنه رجل فاضل صدقنى ، ولكنه يضع الفضائل فى الثلاجة ويقول لنفسه « حين أجـــد الأمان سأقبل الأعداء قبل هؤلاء الزملاء واحداً واحداً على الخدين .

ولكن . . وآه من «ولكن» هذه . . ولكن الفضائل هى الشىء الوحيد الذى يفسد إذا وضعته فى الثلاجة ، فإنك حين تعود إليها لن تجدها إلا رمة عفنة ، هؤلاء الناس يخسرون يومهم وغدهم ، ويخسرون قبلهما أرواحا لهم ، هى - مع الأسف الشديد - من معدن طيب .

(« المســاء » ، ١٩٦١/٦/٢٦ ، ص ٦)

الصنف المطبّق

لى صديق كل الدلائل تدل على أنه يضمر لى غاية الود والإعزاز ، وبت أعتقد أنه أصبح لا يعرف كيف يصرف أوقات فراغه إلا فى صحبتى ، والظاهر أن فراغه أكثر من عمله ، إذا سار معى صرخ إلى وهو يدفعنى إلى اليمين . حاسب ! قدامك عربة هاجمة بسرعة ، والسواقون مجانين . وتمر بنا السيارة بعد ثلاث دقائق ! (وإذا اقتربنا من ظلام عمـــارة جرنى إلى اليسار ـ فأنت ترى أننى لا أسير معه أبدا فى خط مستقيم ـ وقال بصوت ضاحك حنون . هذه العمارات خداعة ، تعلن حيناً أنها تمطر أو تندع بالحجارة ثم إذا بها بعد صمت طويل تلفظ فجأة وكأنما عن عمد وبنية الانتقام ـ كرفسة الفرس المحنق ـ حجرا يتيما واحدا لا يقع إلا على نافوخـــك !

فإذا جمعتنا حجرة جالت نظرته تقيس مكانى بين النافذة والباب ثم قام وقفل النافذة وهو يقول : لاشيء ألعن من تيار الهواء ، ثم لا يرى بعد ذلك مقدار عرق ، والغريب أنه هو الذى يعطس بعد إقفال النافذة !.

وإذا جلسنا نأكل فى مطعم منع يدى وأنا جائع من أن تمتد إلى طبق البامية حتى يأتى لنا الجرسون بليمونة ، وظل ينش الذباب عن طبق لا عن طبقه حتى يبرد ويتجمد دهنه .

هل تدرك الآن شعورى نحوه ؟ إنه يذكرنى بدادتى ، كنت لا أطيق حربتى إذا غابت ولا سجنى إذا حضرت ، وأكبر البلاء أن طبعه قد انتقل إلى بالعدوى ، فها أنذا اليوم أهجم عليك وأنغص حياتك — بدافع من المحبة ، أريد أن أقطع عليك غفلتك اللذيذة عن دمامة مستترة لصنف عجيب من الناس ، ولا شك أنه يصادفك أيضا ، واعذرنى حين تلقاه من بعد وتنتبه إليه وتلعن خاشى اذا أحسنت مثلى بمزيج من القنوط والحنق والغثيان .

رسمه الجامع لصوره العديدة مستخلص فى ذهنى على هيئة واحد ، أفندى ينبىء مظهره أنه شديد العناية بهندامه ، مع أن ملابسه قديمة ، فالثياب عنده حصن الكرامة ، ومع ذلك فإن أناقته فاقعة تلقط العين كأنه يلبس البذلة لأول مرة بعد العمة والقفطان ، وهذا الغراب بين الناس لا يسلم فى أغلب الأحيان من ثقل الدم . : إنه يغض من بصره ولا تقابلك نظرته حتى وهو يحدثك وجها لوجه ولكن إنسان عينه منقبض متوتر يلمع كالترترة بمسحة من

أحمرار لاذع خاطف ، فيه خليط من الحياء والبجاحة ، والصبر والكرب ، والذلة والكبرياء ، والاستكانة والتحفز ، قد تتهمه ظلماً أنها نظرة مدمن مخدرات بيضاء حين يفوت موعدها .

هذه صفات قد يشترك فيها مع سوية الناس ، ولكن علامته المميزة هي صدره إنه صدر إنسان أصيب فى طفولته بمرض الكساح ، فهو كصدر الدجاجة ، مقوس مطبق معا ، كأنما لوته أثقال جسام ، لا أدري لماذا أحس أنني لو نقرت عليه بأصبعي لرن كالطبلة بصدى الكهوف الغائرة ، هذه ولاريب آثار جوع قديم مزمن ، جوع لا لأن الطعام قليل ، بل لأنه وهو وفير طعام خسيس يوما بعد يوم ، وهذا هو أخبث أنواع الجوع وأشدها فتكا بالمروءة والفضـــائل .

هذا الأفندى هو الذى إذا دعى إلى حفلة يتمتع فيها مجانا بروائع الفنون خرج منها قائلا : حفلة بايظة ، لأن بطاقة الدعوة فيها غلطة مطبعية . وإذا بنت له الدولة شقة رخيصة — وإن كانت العمارة كربع القرون الوسطى — أعرض عنها تكبرا ، وإذا رأى الساكن الجديد قال : الآن فهمت ، إنها الوساطة والمحسوبية ، أصل بنت أخت جدة المستأجر تقول لبنت خالة جد الموظف المسئول : يابنت العم .

أفأنت ترى أن هذا الأفندى — وهو مقطوع من شجرة . — خبير مع ذلك فى علم الأنساب ، بحرى وقبلى ، وعمدته قراءة عمود

الوفيات بالصحف بمواظبة لاتكل ولا تمل ، يقلبها اسما اسما ، وهو لا يعرف أصحابها ولو شبها ، يكاد يحفظها عن ظهر قلب لتنفعه ، لا لشيء إلا لكشف الخبايا .

إذا دعوته إلى هلتون قال عنك من وراء ظهرك ، بعد أن يشكرك على ذلك إنك إقطاعى ، وإذا دعوته على طبق فول مدمس قال فى غيبتك إنكِ أبخل من كلبة يزيد .

إذا كان موظفاً جعل أول همه لا يعرف أصول عمله ، بل أسرار زملائه وعلاقة بعضهم ببعض وعلاقتهم برئيسهم ، لو طلب إليه أن يكتب تاريخ حياة وزارة لما فهم أنه مكلف بتسجيل فضائحها .

وهو طول الوقت يتخذ مظهر الساذج العبيط الذى يكره أن يدس أنفه ، بل قد يرضيه أن يضحك الناس على ذقنه ، لماذا ؟ لأنه معتز بقدرته على طول الترصد : فهو وأمثاله هم الذين أمدوا لغتنا العربية — ولهم الفضل — دون سائر لغات البشر بشرف احتوائها على هذا الحشد الضخم من صور منوعة لمعنى واحد كان ينبغى لحسته أن لا تكون له إلا صورة واحدة أعنى قولهم فى إضمار الانتقام : رقد له عليها مبيتها له ، حاططها له تحت ضرسه ، أنا وراك والزمان طويل ، مخمنها له ، محوشها له ، فضل يفتل له سنين وأيام ، واخده فى مشمه ، ماسك أثره ، وحاططها له فى قلبه ، فحت له بير ، ولولا الحياء لأضفت عليها أيضاً عبارة « الصبر طيب » لأنها لا تقال عندنا عادة إلا للتهديد .

إذا كنت فى مجتمع من الأصدقاء وهل علينا هذا الأفندى لا أدرى لماذا أحس — حتى وأنا مغمض العينين — بمقدم مركز ضغط منخفض ، يتعكر له جونا وتتخلخل روابطه وتبوخ ناره ونحن لا نعرف السبب ، لأنه يخطو نحونا خطو المتلصص ثم يجلس صموتاً مؤدباً ، مطأطىء الرأس ممتناً كأنما يشرب شرب العطشان .

كل كلمة تخرج من أفواهنا - ولو كانت تافهة — يجدها رطبة لذيذة ، ابتسامته التى تكشف عن أنيابه هى علامة سعادته وامتنانه ، ابتسامة تقنع بالحياء صفرتها ، ولكنه فى الوقت ذاته منتبه أشد الانتباه لتسجيل ما يسميه هو بالتيارات التحتانية ، التى يزعم أننا نحاول إخفاءها لاعنه وحده ، بل عن بعضنا بعضاً ، وكثير من المجتمعين يحسون بشيء من الدهشة الغامضة حينما يجدون هذا الطارق الجديد الغريب عنهم يضغط على يدهم وهو يودعهم ضغط المحبين ، ويحارون فى تفسير معنى حركته ، إنه يريد أن يقول لهم سرا : « لست مغفلا . أنا فهمت كل حاجة » . إنه من أشد الناس غرورا بذكائه وحدة بصيرته ولو أن قاموسه مشوش لم يجيء فيه شرح واحد أمام كلمة اسمه ، وقد سمعته مرة يقول إنه فقش رسالة خفية من سيدة فى شلة الأصدقاء حين قالت فى عرض ثرثرتها إنها ستذهب هذا اليوم لخياطتها لسابع مرة تستعجلها إنجاز ثوبها الجديد. قلت له : وأين هذه الرسالة الخفية يا بطل ؟ قال : إنها تضرب موعدا لمقابلتها عند هذه الخياطة فى الساعة السابعة وإلا فما معنى

قولها لسابع مرة ؟ هل عدتها على أصابعها ؟

قلت له وأنا متعجب إذ كنت حاضرا هذه الجلسة ولم أتنبه لشيء من هذا . وإلى من وجهت رسالتها الخفية ؟ قال : هل أنت أعمى ؟ طبعاً لزميل زوجها . ألم تر يدها ترتعش وهى تقدم له فنجان الشاى ، وأشاح هو حينئذ عنها بصره لئلا تلحقه الريبة ؟ .

من أجل هذا الأفندى وأمثاله اعتادت بعض صحفنا ومجلاتنا مع الأسف أن تضع ثلاث نقط وراء بعض العبارات للايحاء بمعنى خبىء ، أنت تقرأ السطور وحدها أما هو فيفتخر بأنه يقرؤها خطفاً ليركز كل انتباهه على ما بين السطور ، فإنه يعلم حينئذ الكثير الذى يفوت عليك ، ولعل أخس ذكاء عندى هو ذكاء من يقرأ ما بين السطور

ومن عجيب طبع هذا الأفندى إنه شديد اليقظة لكل سلاح يستعمل للخير لا للشر ، بل لا يراه إلا أداة إرهاب ، إنه لا يشهره بنفسه عن إيمان ، هو أعجز وأكذب وأجبن من هذا ، بل يقف متسترا وراء من يحمله ، يزق يده به فى وجوه الناس ويستعديه عليهم ، فهـو لا يحارب أبدا ولكنه ينتصر دائماً ولا خطر أبدا عليه ولا حيلة لك فيه ، وهو بتخويفه بهذا السلاح يقطع عليك كل حجة ، هو الذى إذا كان جندى مطافىء نكص عن تركيب الخرطوم وطلوع السلم والاقتراب من النار ، وتصدى لفعل شيء واحد ، هو دق الجرس فيغالى فى دقه دقاً عنيفاً مجلجلا يرج به قلوب الناس ، هذه هى فرصته ، وحين

يطفىء النار الآخرون وهو يتفرج عليهم فوق الرصيف يقول شامخاً بأنفه . كدنا نموت وسط اللهيب ولكننا أطفأنا الحريق وأنقذنا السكان .

هذا الأفندى هو الذى يتناصل فى الهايفة بالمليم ثم يكتب للصحف داعياً للشفقة بالبائعين الجوالين ، هو الذى يمسح الجوخ لرئيس التحرير فإذا رفض مقاله السخيف اتهمه بأنه لا يفتح صدره إلا للمتزلفين ، هو الذى يؤمن أن كل أجر يدفع لغيره إنما يتضمن زيادة هى رشوة مستترة ، فاذا لم ينلها هو لطم الخدود على انتشار الرشوة والفساد فى بلدنا .

[] هناك شيء واحد يبطل سم أنيابه ، هو أن لا نحيد عن إضمار الخير وفعل الخير ، وإشاعة الخير بين الناس ، فإن هذا الأفندى هو كالخنفسة تموت فى حوض الورد .

(« المساء » : ١٩٦١/٨/٣١ : ص ٦)

بيني وبين صديق

بقى فى ذاكرتى حديث جرى منذ أيام بينى وبين صديق أحبه لطيبته ووسامته ، لشدة حساسيته ومزاجه الرومانسى ، وكنا قد خرجنا من القهوة بعد سهرة مملة وبدأنا نسير على مهل — والليل قد انتصف — فى شوارع خالية إلا من أشباح مضيعة متهالكة كأنما تنتظر هى والقمامة حملة المكانس ، لا يبدد الوحشة إلا رحيق من نسيم عذب تعرفه ليالى القاهرة فى الصيف إذا بدأ الفجر يتنفس ، كان صديقى هو البادىء بالحديث على غير عادته ، قال بعد صمت كأنما يستيقظ من حلم :

ما قولك فى هذا الإحساس الغريب الذى يتملكنى إذا جاء فى عرض الحديث ذكر لتاريخ وفاة إنسان أعرفه ومشيت فى جنازته

فأتبين — وكأنما فجأة — أن موته لم يمض عليه إلا قرابة شهر أو شهرين ، فإن قلبي حينئذ ينتفض ويهمس لى : عجيبة .. كأن يخيل إلى أنه مات منذ سنين موغلة فى القدم ، كيف انقلبت عندك هذه الفترة القصيرة إلى دهر سحيق ، هل عمرنا طويل إلى هذه الدرجة ؟ لا تبدده الأيام ؟ هذا الإحساس نفسه يتملكنى بصورة عكسية إذا كان الحديث عن الأحياء من حولنا بأن يقول لى مثلا إنسان أعرفه وأخالطه إن قد مضت عليه سنة كاملة فى مسكنه الجديد ، فإن قلبي حينئذ يتفض ويهمس لى : عجيبة .. كنت أتخيل أنه سكن منذ مدة لا تزيد عن قرابة شهر أو شهرين كيف انقلبت عندك هذه الفترة الطويلة إلى شيء يشبه لمح البصر ؟ هل العمر قصير إلى هذه الدرجة ، تنهبه الأيام نهباً ؟

فأنت ترى أن إحساسى بالزمن يختلف ، الزمن هو واحد ، ولكنه عندى بالنسبة للموتى حركة قطار اكسبريس يبتعد عنى ، وبالنسبة للأحياء حولى ؛ بل وبالنسبة لحياتى أنا أيضاً — حركة من يدور حول نفسه فى مكانه ولا يتقدم داخل طائرة مسدلة الستائر منطلقة فى الجو ، على كل حال فإن هذا الإحساس يتمثل لى دائما فى شكل يقظة عنيفة — كأنها نور شديد يومض فجأة على وجه نائم — تورثنى شيئاً من الدهشة بل — وأعترف أيضاً — شيئاً من الحسرة على النفس والخوف . فما معنى هذا الإحساس ؟ وما سبب الفرق بين صورتيه ؟

— المسألة بسيطة : نحن لا نتعامل مع الموتى ، لهذا لانحس بالزمن بالنسبة لهم ، ولكن دعنى أفكر قليلا . . لأ نك ألحمتنى وخلعت على حيرتك : أظن أن إحساسك يمضى مع الموت إلى الوراء بسرعة راجع إلى سببين :

الأول : الموت عدم ، والعدم صفر ، هو شيء خاص من الزمن ولا يقاس به ، هو باب فى نهاية ممشى طويل أوقصير يؤدى إلى هوة ما لها من قرار ، ليست المسألة إلى أى عمق بلغ من وقع فيها بل هى وقع أم لم يقع .

والسبب الثانى : هو أننا وإن كنا نؤمن بعقلنا أن حياتنا تنتهى حتما بالموت لا نصدق فى قرارة قلبنا أننا فيما بعد سنموت اليوم أو غدا . . فيما بعد . . أمامنا وقت . . أمامنا وقت . . فغريزة البقاء تجعل من فكرة الموت عملة نرفض ، نحن الأحياء ، تداولها بدعوى أنها مزيفة ، وما هى مزيفة .

هذا المنطق هو سبب دفعك الأموات بعيدا بعيدا للوراء حتى يغيبوا هم وفكرة الموت عن ذهنك ، وهذا نوع من التخدير ، الذى تأتى بعده اليقظة لزيفه عنيفة تزلزل القلب .

— وما قولك عن إحساسى بالزمن بالنسبة للأحياء ؟

— أظن أن السبب راجع إلى رتابة الحياة عند أغلب الناس وأنت واحد منهم ، فإذا كانت الحياة رتيبة ، يمضى فيها اليوم مثل سابقه ، ومثل لاحقه فكيف يمكن أن تقيس به الزمن ؟ فالحسرة

على نفسك التى تحس بها حين تنتبه أن سنة قد مرت عليك مر شهر أو شهرين إنما مردها هو ضيقك وتبرمك بهذه الرتابة ، وبأن حياتك فارغة ، فلو كانت حياتك غنية ملأى بالحوادث ، غذاؤك العقلى والروحى متجدد متعدد متنوع ، لما افترسك هذا الشعور الذى تحكى لى عنه والذى فيه تفسير قولهم : «سرقتنى السكين» ..

ألا تظن أن الرتابة هي أيضاً قانون الكون ؟ إنه منذ خلق يسير على وتيرة واحدة . . فخلية النحل نجدها اليوم بيننا هى صورة حرفية لأول خلية سكنت الأرض ، شكلها وكل ما يحدث بداخلها مرسوم طبقاً لقانون حديدى لا يتغير ، وحتى لو قلنا إن الأجرام ليست ثابتة بل منطلقة فإن انطلاقها أيضاً يجرى طبقاً لقانون ثابت ، فهى حتى فى انطلاقها تسير فى حركة رتيبة .

— لا أدرى ، لو صح هذا لقلت لك إذن إن أكبر فضل لكبار الفنانين وكبار العلماء المخترعين والمكتشفين يتمثل أول ما يتمثل فى تقديمهم للانسان أسباب التحرر من هذه الرتابة أو على الأقل للتخفف منها ، فإن كل روائع الفن ، وعجائب المخترعات والمكتشفات إنما هى نقلة عنيفة وحركة متجددة تقلب الأوضاع القديمة ، وإذا كان الفن والعلم يضربان دائماً فى طريق مجهول ، عند كل لفتة منه مفاجأة وعالم جديد فلا خوف عليهما أن يقعا هما أيضاً فى الرتابة ، فهما ناجيان منها أبداً .

— وهل تعتقد أن إحساسى هذا مطلق لا قيود له ؟

— يخيل إلى أن له قيودا ، فشرطه فيما أحسب أن لا يكون

لهؤلاء الموتى أو لهؤلاء الأحياء قدرة على بث شحنة كهربائية قوية فى قلبك بسبب مصلحة أو عاطفة . انظر مثلا هذه الأم الثكلى التى تذكر إلى آخر عمرها باليوم والدقيقة لحظة وفاة وليدها العزيز ، الزمن عندها صادق لا يخادعها ، هذا نوع من الأنانية ، والأنانية وحدها هى التى تصحح الشعور بمرور الزمن ، أتريد مثلا يوضح لك ما أقول ؟

أنت فى حفلة كبيرة يزدحم فيها الناس بعضهم فوق بعض ، الحديث غمغمة متشابكة كأنها بحر خضم ، لا تلقط أذناك منه شيئاً لأن شيئاً منه لا يهمك ، يكفيك أن تقوى على الاستماع لحديث جارك عن يمين أو لحديث جارتك عن يسار ، ثم إذا بإنسان فى ركن قصى من الحجرة الفسيحة يلفظ فى خضم الأحاديث المتشابكة اسمك وسط كلامه ، ولو بسرعة كبيرة ، فإن أذناك تطرطق فوراً وتنتبه وتلقط هذا الاسم الحبيب وحده من وسط الضجة وبالرغم من خفائه وضياعه بينها .

— وهل تحس أنت أحيانا بمثل إحساسى ؟

— أظن أننى بدأت أتنبه إليه حين تقدم بى العمر ، فالشيخوخة هى أم الرتابة وما سحر الشباب إلا فى قدرته فى التحرر منها ، ولكن يا أخى لماذا لا ترتاح إلا إذا استيقنت أن كل ما تحس به أيضاً انسان غيرك ؟

— لأنى أخاف من الانفراد .. لأنه يشتبه والشذوذ .

(« المساء » ، ١٩٦١/٩/١١ ، ص ٦)

خرج ولم يعد

حين تقع عيني عرضا وأنا أقلب الصحيفة على خبر وصورة تحت عنوان «خرج ولم يعد» أصبح كهذه المرأة التي تصادف في الطريق زحاما لأناس ومصمصات حول صريع تحت عجلات الترام ، إنها ممزقة بين شهوتها في أن تزج بنفسها لتلمح الجثة ولو مستورة تحت غطاء من ورق الصحف ، وبين اتقائها للجزع من بشاعة المشهد الذي سيطعن قلبها كالخنجر ، فنظرتها تثب خطوة إلى الأمام وقدمها تتراجع خطوة إلى الوراء . سؤالها المتناثر حولها عن علامة تطمئنها أن القتيل ليس من أهلها وإن كانت واثقة أن أقدامهم لا تدب عادة في هذا الطريق ولكن من يعلم .

وهكذا أنا أقرأ صحيفة الوفيات دون نزاع في نفسي ، فأخبارها أحكام مترقبة قاطعة ، قد تورثني الحزن مختلطا بالاستسلام مرة ،

بالعجب والدهشة مرة ، هى لا تقبل الجدل ولا تثير سؤالا رغم أن الموت سر مجهول .

أما عنوان «خرج ولم يعد» فيورثنى رهبة غامضة تتخفى وراء قناع ناطق بالأسى ، يحولنى من نور إلى عتمة، يصدمنى برمة مأساة تثير فى نفسى أسئلة كثيرة مقلقة أضيق بها ، بل يرتد إلى بوضوح مذهل بعض أمسيات طفولتى لأجد فى تربتها بذرة دفينة تعالى هذه التهاويل الشاذة التى أورق بها طبعى .

أويت إلى البيت بعد الغروب طائعا أو مكرها ، دقت ساعتنا الشرعية عند العشاء آخر أذان، صوته أشد جلجلة من أذان النهار ، وأخف من أذان الفجر ، وان قاربه قليلا فى الإيحاء بخشوع حزين للذين، انقطع مرور عجلات الدبش ، وعربات الكارو والحنطور ، تضاءلت الأقدام فى الطريق ، بائع الفجل والكرات جاء ومضى ، الليل يخيم على الكون ، صرير الترام عند حودة مسجد الرفاعى تصل لأذنى وهى بعيدة كأنها فوق السطوح ، فيزداد إحساسى بانطباق الصمت على حينا ، بدأت أحضان أمهاتنا وأجسادنا تربى هذا الدفء الجميل الذى يكحل عيوننا بعسل النوم .

وفجأة يأتى من بعيد صوت رجل أصبحنا نعرفه لأنه محترف ، «يا أولاد الحلال». ثم لانتبين بقية كلامه ، نقوم إلى النوافذ نفتحها فى لهفة وتطل رءوس الكبار والصغار وشيئا فشيئا يقبل فنسمع النداء تحتنا « يا أولاد الحلال، ولد تايه من النهارده العصر ، الأجر والثواب على الله يا عدوى !

صوت الرجل ، رغم عنائه ، غير مذبوح لأن يده ليست فى النار ، أما الصوت المذبوح رغم خفوته فينبعث من فم امرأة تتهالك وراءه على شبشب زحاف ، لا تحسن ستر جسمها بملاءتها ، لوصب للدوخة تمثال لمكان هى ، تردد وراءه بأنين « يا أولاد الحلال » ثم لا تزيد ، إنها تترك إعلان توهان ابنها للرجل ، تعاف أن ينطق به لسانها ، عرفت من أنينها لأول مرة فى حياتى معنى الفجيعة وكيف تهصر القلب .

نحن فى الفراش ، فى البيت ، فى أمان ، مع أهلنا ، نسأل فى سرنا برهبة وأسى : أين ذهب هذا الصبى المسكين ؟ كيف سيقضى ليلة بغير غطاء ؟ أهو الآن جائع ؟ وفى قاع أذهاننا صور مخيفة من الحواديت . عفاريت وغيلان ، ومارد أعور ، والست المزيرة ، وام رجل مسلوخة ، وحمار الزلبانى – وهو حمار أبيض جميل يصادفك بالليل فإذا جهلته أو علمته ونسيت وتحامقت وخدعتك رقته وبراءته علا بك ثم علا « هذا هو مصعد أيام زمان ! » حتى بلغ السماء ثم ألقاك محطما على الأرض .

وتحذرنا أمى قبل أن ننام ألا نمشى وراء الزفة لأبعد من نهاية شارعنا ، فهذا الصبى التائه سار ولا شك وراء زفة ، مسحورا بالموسيقى والطبل والرقص وعربة العروسة وعربة المطبخ ، وفجأة تلفت حوله فوجد الشمس قد غابت وأنه ضل الطريق .

أصبح هذا النداء مألوفا عندنا لأنه يتكرر ، ولكن هيهات لتكراره آن يسلبه وقعه الأليم كل مرة .

ياعدوى، شفاعة اولى ترك الكرامات الكبار لغيره من الأولياء، واكتفى هو بالتخصص فى العثور على الضائعين. من إنسان وحيوان، لا شأن له بالجماد، تركه ليسترزق من البحث عنه فاتح المندل وقارئ الفنجان ومحضر العفاريت.

كنت أتصوره — رغم الحزن الذى يثيره اسمه — رجلا بشوشا متواضعا سمحا ؛ يجلس على سجادة ويخفى وراءه صبيا صغيرا خلره وأسنده جواره للولى واستنشاقه من أردانه رائحة الماورد والمسك والكافور ، تجيئه أمه ضارعة متلهفة فيظل يعاتبها وينقلها بين الأمل واليأس ؛ حتى إذا أحس أنها تأدبت وثابت عن إهمالها لولدها والشك فى ولايته ابتسم فى وجهها وأخرج لها الصبى من وراء ظهره : إنه ولى يحب المعابثة .

ولما كبرت بحثت أنا بدورى عن هذا الولى الضائع على والذى يبحث عن الضائعين فوجدته فى الاسكندرية ، فى حى الجمرك ، يسكن زاوية متواضعة من حجرة واحدة مربعة صغيرة مفتوحة على الطريق ، فكسر خيالى أننى لم أجد وراء ضريحه المترب صبيا مختبئا ، فما يجلس على بابه الا خادم مهدم لو مرت به أجمل زفة لما منحها طرفه .

الآن أروض نفسى وأقرأ خبر «خرج ولم يعد» ، وأطيل تأمل صورة الضائع . صبى فاغر الفم منطمس الملامح من أثر ذهول الحدق لأول مرة فى آلة التصوير ، هل عجز هذا الصبى عن أن يبين عن اسم أمه أو أبيه أو عنوانه : أم هم أشد منه

ضياعا فى الحياة ؟ ألم يجد واحدا — واحدا فقط — من أبناء الحلال يأخذه من يده ويرده إلى أهله . كيف ينتهى حاله ، استراه عما قريب يقود شحاذا أعمى فى القطارات والأتوبيسات ؟ »

من يدرى ؟ لعله سيكون هو هذا الصبى السائل الذى يمد لك يده كالخطاف قد بترت أصابعه الوسطى لا . . لا . . إننى أرفض أن أصدق أن بيننا رجل مثل « زيطة » الذى وصفه نجيب محفوظ فى « زقاق المدق » وجعل مهنته تشويه الفقراء ليرتزقوا من عاهاتهم ، أجره يرتفع كلما زادت بشاعة التشويه. أستراه وسط كوم من اللحم البشرى على رصيف تتعثر به أقدام المارة بالليل فى عز الشتاء ؟!

وقد يكون الضائع شيخا متجهما تحس من صورته أن الأيام قد دعكته وأرهقته . هل أصيب بفقدان الذاكرة ؟ هل ترك بلده ليلقى عن عاتقه مسئوليات لا قبل له بها ؟ أستراه فى طنطا — مثلا — عند موقف الأتوبيسات تحت الكوبرى رث الملبس ، القمل معشش فى رأسه وسارح على بدنه ، يمشى ببطء المشلول منحنيا ، يسألك بنظره لا بكلامه ؟ ! .

وقد تكون الصورة لفتاة عليها رواء الشباب رغم ثوبها الرخيص هى معجبانية تبتسم بعفرتة . . أستراها هى أيضا ذات يوم جثة ممزقة فى قميص من حرير تحت ثوب أنيق ؟ أم ستراها مسجونة فى بيت للبغاء السرى تملكه امرأة لا تعرف الرحمة ولا كلمة « استوب » بزيادة كده ؟ هل ستراها متهمة فى قضية بأنها متزوجة من أربعة رجال ؟ من هو الفتى المأذون الذى لحس عقلها بكلام معسول عن

الحب والغرام والفسحة والسينما وزين لها الهروب عن بيتها ؟ : مستفوت السكرة وتأتى الفكرة ، يقال إن للقواد حين يوقعون بامرأة شريفة لذة تفوق اللذة الجنسية ذاتها ،

أم نرى جميع البالغين منهم قد أصيبوا فجأة بهذا المرض الحديث العجيب . الزهق من رتابة الحياة وتشابه الأيام ، من ورائه إلحاح عجيب ينفض اليدين من كل شيء والهرب دون أن يحملوا شيئاً إلا الثوب الذى عليهم . الانطلاق من كل أسر : العائلة والزوج والولد والعمل ، ثم الهرب إلى أرض الله الواسعة لايهم الطريق ولا أين تقود القدم ، الهيام على الوجه كأنما تدفعهم فى ظهورهم رأس سونكى ، فى قلوبهم شهوة دفينة عتيقة بأن ينفردوا ولو مرة بأنفسهم وجها لوجه فى الكون الواسع السحيق . هل يجدون من اللذة الكبرى أن يعيشوا مجهولين لا يعرفهم أحد ؟ هل تختفى حينئذ كل عيوبهم وتتجلى كل فضائلهم ؟.. لهم أن يبدلوا أسماءهم كما يشاءون ويضحكون فى سرهم لأوهام الناس عنهم ! أهذه الشهوة موروثة عن الرجل البدائى الذى كان يهيم بلبس قناع على وجهه ؟ أن يكون إنسانا مزدوجا لا واحد ، أم أنها هى الصورة الوحيدة التى يطيقونها للانتحار ؟

الانتحار ؟ نعم ! فإن أخبار « خرج ولم يعد » تجعلنى كما أحس بأن الموت هوة سحيقة تشفط الناس تجعلنى كذلك أحس بأن الحياة هى الأخرى هوة سحيقة تشفط الناس ، السقوط واحد والضياع

هو هو . . يجعلني أحس كأننا نمشي على صراط دقيق بين الهوتين وأننا رغم ما ننعم به من أمان وانتظام عيش ومستقبل مضمون بقدر علم الإنسان نعيش مع ذلك فى رهبة دفينة مستمرة من أن تزل القدم يسارا فنقع فى هوة الموت أو تزل يمينا فنقع فى هوة الحياة ويبتلعنا خضمها ذلك أن مرض الرغبة فى الهروب قلما يسلم منه إنسان فى العصر الحديث وإن اختلفت حدته .

ومرد هذا الإحساس عندى أننى أعيش فى بلد يختنق بالسكان ويعم فيه الفقر ، الصلة بين الفرد والبيت مبهمة غير وثيقة . العنوان الثابت متعذر انظر إلى أنفار التراحيل ، معنى التشرد يساوى — إن لم يفق — معنى الاستقرار ، الكتلة البشرية تتحول من مجموعة أفراد متميزين بشخصياتهم وملامحهم ونمط حياتهم إلى عجينة سائحة تزول فيها الشخصيات والملامح ونمط الحياة ، فلا عجب إذا لمستها قدم أن يغوص فيها صاحبها لأذنيه ، إنها وليدة قانون اقتصادى ، إذا زاد العرض على الطلب هبطت الأسعار . كذلك أرى رأى العين — إذا تقاعسنا عن تطبيق الاشتراكية لمعالجة الفقر والازدحام — هبوط سعر الفرد باستمرار حتى يصبح من سقط المتاع ، العشرة كالمائة والمائة كالألف .

من حسن الحظ — أو بالأصح من سوء الحظ — أنى أستطيع أن أقدم لك دليلا استقيته أخيرا من الصحف . روت أن امرأة عاقراً اشتهت أن يكون لها ولد فذهبت إلى مستشفى أبى الريش وهناك

اشترت من امراة على الرصيف متخصصة فى بيع الأطفال ولديها عدد لابأس به منهم ، بنتا صغيرة ، ففرحت بها وقبلتها وحملتها بين ذراعيها ، وعادت بها إلى الدار بعد أن دفعت ثمناً لا أعلم كم هو ، هل اشترتها بالوزن ؟ أم بحسب السن بعد الكشف على الأسنان أم بمقدار الوسامة وجمال الشعر ؟

فلما استقرت فى دارها لحظت أن بطن الفتاة لا ينقطع عن الإسهال ، وكل شيء يدخل فى فمها تتقيؤه ، وأن صراخها لاينقطع : عالجتها بالوصفات البلدية فلم تتحسن . . فلما أدركت انها ستحتاج إلى طبيب ودواء من صيدلية أسرعت بها إلى البائعة وقالت لها : ابدليها بأخرى تكون أشد عافية وصحة ، وماذا يهمك فعندك منها كثيرات .

كأنما اشترت حذاء قديما فوجدته يعقر قدمها فأعادته للبائع للبدل عليه بنمرة أخرى ، يخيل إلى أن بائعة الأطفال ستعلق فوق رأسها لافتة تقول : « ممنوع ترجيع البضاعة بعد نزولها من على الرصيف » ! .

وهذا الخبر أقلقنى طويلا لسبب آخر ، لقد لبثت أياما عديدة وأنا حائر فى فهم معنى عاطفة الأمومة فى قلب هذه المشترية . كيف طغى عليها فاستجابت له فاستحقت منا ونحن نفهمها الحب والعطف والتقدير ، فلما نالت كنزها الثمين من الله سبحانه على يد البائعة أهدرته بصورة لاحد لبشاعتها وقسوتها واستحقت منا

الاحتقار والاشمئزاز واللعنة وإقصاءنا لها عن نطاق البشر .

كنت من قبل إذا أردت وصف جمال العاطفة أقول أنها وصلت إلى حد الغريزة الحيوانية ، فوجدت مصداق كلامى عند هذه المرأة ، نطقت الأمومة فى قلبها بدمامة مقززة لأنها بقيت غريزة بنى آدم يعيش فى مجتمع لاترقى إلى مقام الغريزة الحيوانية ، فالدجاجة لا ترفض تربية كتكوت غريب يدس عليها ولو كان مريضاً لاينقطع قيئوه وإسهاله وصراخه أفتكون هــذه المرأة أحط من الحيوان ؟ ! .

(« المســاء » : ١٩٦٢/١/٢٩ : ص ٨)

سبعة في قارب

لا أذكر من الذى اقترح علينا عند انفضاض اللجنة بعد ثرثرة مرهقة طويلة فى حجرة دميمة معتمة أن نُروِّح عن أنفسنا بنزهة فوق النيل ، وكنا ستة أشتاتا ، جلسنا فى قارب يملكه شيخ هرم ، توسط بنا النهر العظيم والشمس مائلة للغروب وراء نخل رشيق ، السماء بلون الورد ، تراجعت ضجة المدينة الصاخبة ، للماء وهو يلطم القارب لغط رتيب ولكن غير ممل ، الهواء طاهر ، الجمال رضى أخيرا أن يميط اللثام عن وجهه ويبتسم لنا ، خيل إلىّ أننا جميعاً قد نسينا الدنيا و نفوسنا ، متاعبا وشرورا — وساد بيننا الصمت . ثم إذا بى أرى من هو أقربنا إلى الدفة — وهو رجل غائر العينين مطبق الشدقين — يميل بجذعه إلى حافة القارب ويسند رأسه على كفين مضمومين تحتها ويقول :

ـ هذه هى اللحظة التى أشعر فيها بفيض دافق من الجذل والحبور يلفنى ويغمر قلبى ، كل شىء فى الكون قد اعتدل وانتظم بعد اعوجاج واضطراب ، لا فرق فى ذلك بين الأجرام السماوية وأحشائى الداخلية ونوازع ضميرى ، يجمعها على الصفاء والخير نسق واحد كأنما كل شر ودمامة وقبح وقذارة قد مسح عن الوجود فجأة . فى هذه اللحظة تنهار جبال شاهقة من التفاصيل التى تسد الرؤية ، فلا يبقى امام ناظرى إلا الأصول التفاصيل هى اجتماع نقيضين : ميوعة الفوضى وصلابة الجمود. سر وجودها مستمد من وهم المقاييس التى نخترعها نحن للوزن والحجم ، فلولا هــذه المقاييس لما بقى لها معنى ، استقلال كل تفصيل بنفسه راجع لا إلى ميزة فيه بل إلى مجافاته ومخالفته لجزءه ، هيهات أن يسوى على سطح واحد كوم من الأشواك . وحين تنهار جبال التفاصيل تتداعى لها جوانب كثيرة من نفسى ولكنى لا أحس أننى خسرت شيئا ، بل أحس أن كابوساً قد انزاح عنى .

فى هذه اللحظة أنا طفل أكركر حتى تنبهر أنفاسى ، تضحك فى قلبى الفرحة الأولى للكون حين انفلت من العدم ، فرحة كل رسام سابق وقادم حين تحقق لوحته أحلامه ، فرحة كل شاعر كلما نطق الفن بلسانه ، فالجذل هو قرار السعادة وجماعها . إن من يملك الجذل هو فى غير حاجة لشىء آخر ، إنه يجد له طعما حلواً فى فمه ،

كل العواطف إلى جانبه أقمار تستمد ضوءها من شمسه ، الليل حين يغيب هو ولو طلعت كافة هذه الأقمار .

هبّ أقربنا إلى مقدّمة القارب واقفاً ، هو رجل أقنى الأنف ، جسمه كالوتر المشدود ، لو نقرت عليه لرنّ وانبعثت منه شرارة ، ضاعت قدماه ذرعاً بانحباسهما فى حيز ضيق وهم أن يمشى على حافة القارب ، وقال وهو غير ملتفت إلينا ووجهه مرفوع إلى السماء .

— أما أنا فأحسُ كأنى قنبلة فى مدفع ، وقع الجمال علىّ هو وقع الزناد التى يطلقها من الأسر إلى الحرية . أعطانى الحرية ، ثم سألنى من أنت وماذا تشعر وبأى شىء تهيم : أما من قبل فلا أعرف كيف أجيبك ، بل ما جدوى أن أجيبك حتى ولو عرفت : فى تلك اللحظة أصبح كأنى انفلت كالنصل العريان من آلاف القيود والأغلال الحقيرة والسفاسف والأباطيل ، من عسف يسترقّ روحى ، وعسف يسترقّ جسدى ، هى التى تخنق آفاقى وتشل حركتى وتربطنى إلى أصنام عيونها من الزبرجد والياقوت وقلوبها من حجر صلد وثغورها باسمة . . ليس أقبح من ابتسامة الصنم الذى تراق أمامه دماء الذبائح وتنسكب دموع الأسلاب ، إن هذا الأنا الذى أعيش فى أغلاله ليس أنا ، محال أن يكون أنا ، بل هو إنسان آخر يشبهنى تمام الشبه ، إنه طعين فتنزّى جراحه ، وتتعفّن كل فضائله ، ما أهون الانطلاق من قيود المجتمع وأنظمته ، ليس هذا هو الانطلاق الذى أشعر به ، بل

هو الانطلاق من أسر الوجود العابر ، من القدر الساخر ، من القابلة التي تقطع الحبل السُرى ، من الحاضنة التي يكتم صدرها الأنفاس ، من المعلم الذى لا يرشدنا إلا بسبّابته ، الناس تستيقظ من عز النوم فى بهمة الليل على صوات عواء له ترديد الثكلى المفجوعة بوحيدها. ما لهم يجرون إلى النوافذ ليروا أى كلب ينبح . لو أصاخوا السمع لعرفوا أنه منبعث من قلوبهم ، إنه عواء حرمان الإنسان فى هذا الوجود من الحرية وتخبطه فى عذاب الامتهان فى قبضة الأسر . إنه كثور الساقية ، غائص فى الطين ، على عينيه حجاب ، لا يعرف هدفه ، يدور فى حلقة مفرغة . إحساسى بالجمال هو الذى ينشلنى من الطين ويمنحنى أجنحة ترفع الجبال ، هو الذى يفك الحجاب عن عينى ويكسر حلقتى المفرغة .. يفعل كل هذا لأنه يهبنى الشعور بالحرية ، إننى أحلم كثيراً بأننى أطير فى الهواء .

وقال الجالس أمامى وهو رجل لا ينقطع سعاله من الربو مخاطباً عاشق الحرية :

ــ تركت لك السماء ياصاحبى ، أما أنا فإحساسى بالجمال يزيدنى التصاقاً بالأرض والناس ، وهذا من نعم الله علىّ ، فإن كيانى فى هذه الدنيا هو كل نصيبى ، لا أملك شيئاً سواه ، إنه صندوق مملوء بالأسرار والقوى والمتع ، وهى منه وله ، وهو غنى بها عن غيرها . ومع ذلك فإننا نستهين بها كلما تركنا ظلام العجز والشكوك والخوف والحذر تغلف قلوبنا على غفلة منا ، فلا نطلق القوة لأقصى

نطاقها و المتعة إلى آخر حدودها ، إننا نصرّفها تصريف الشحيح الضنين بماله ، بل هي على خلاف المال تفسد بالكنز ، الحياة كأس ممنوحة لنا حلالا ولكننا نعجز عن شربها للنهاية ، خوفاً من الثمالة — ولا ثمالة هناك ، خوفا من أن نفرغ فلا نجد غيرها . . مع أن الساقى كريم رهن الإشارة ، نحن نفرض الحرمان على أنفسنا تطوعا منا دون أن يجبرنا عليه أحد ، فهو حرمان لا ثواب له . فوقع الإحساس بالجمال علىّ هو تأجج عواطفى كلها لتبلغ من المتعة أقصى غايتها ، إننى حينئذ لا أرضى بالحب الوجل الكسيح الراضى بالقليل ، بل أريده عشقا عاصفا وولها متقداً ، هو وليد انعطاف كامل غير هيّاب من القلب والروح والخيال معا ، فلا يبقى فى جسدى كله ذرة من مادة أو كهرباء إلا شاركت فى العب من العشق حتى ترتوى ، وتزداد أيضا عند إحساسى بالجمال قدرتى على الحنوّ على الرأفة ، على فهم الفكاهة ، على الابتسام . فإذا بلغت هذه الغاية تحقّق معنى وجودى كإنسان فى هذه الدنيا وشعرت بسعادة ليس فوقها سعادة .

وقال جارى وهو رجل ممعود (١) نحيل عالى الجبهة ، أرنبة أنفه تعمل عمل الإبرة التى تعكس اهتزازات روحه :

— يا لحسن طالعكم . . أما أنا فوقع الإحساس بالجمال علىّ هو حزن يتسلل إلى قلبى ويحتل كل حجراته ، لا يقبل معه شريكا ، إنه يتخذه مسكنا وضريحا ، لا أنكر أنه حزن وديع رقيق غير شرس ولا موجع ؛ ومع ذلك فله قدرة على السريان مع دمى

(١) معد فلان : فســدت معدتـه فلم تستمرىء الطعام فهو ممعود .

فى عروق كلها ، يكسو الوجه ويطلّ من العينين وتنبض به اليد ، لا أدرى لماذا أنا كذلك ، هكذا خلقت ولا أملك أن أشفى من طبعى ، يخيل إلى أننى لو كنت شريحة من الزجاج الحساس للفوتوغرافيا لكانت من الرقة بحث تنشرح ، بل تتحطم لحظة ينعكس عليها ظل شيء جميل ، لأنها غير قادرة على استيعابه ، إننى فى أحيان كثيرة إذا رأيت الجمال أغمضت عينى . لا أعرف شيئاً مثل الجمال يجمع بين التحدى والخداع ، إنه يوهمنا إنه فى متناول يدنا ، ما علينا إلا أن نمدها حتى نقبض عليه فإذا فعلنا تراجع قليلا وهرب منا ، إننا نظل نجرى وراءه فلا نبلغه . إن سبب هذا الحزن هو أيضاً اضطرارنا – ونحن بنعمة الله غير كافرين – أن نجأر له بشكوى قد تختلط بالتجديف . . لماذا حين خلقت الجمال وأسكنته دنيانا خلقتنا عاجزين عن تملكه ؟ . . وتمضى حياتنا فى التحسر على هروبه من يدنا . . ألا يكون ثمن تملك هذا الجمال إلا الجنون ؟

ودلت نظرة آخرنا وهو رجل قزم أعمش ذو حياء منطو على نفسه على أنه يجد أكبر لذة فى تأمل الوجوه والانتباه لاختلاف الطبائع والاقتراب بالحدس من فهم عالم هذا الاختلاف ، ولو لا إحساسه بالجمال فى تلك اللحظات لما ملك قدرته على تأمل أصحابه كما فعل بلذة كبيرة لأنه يعتقد أن ليس فى العالم لذة أو سعادة تفوق لذة أو سعادة الفهم ، أن تنكشف المعميات ، أن تزاح الحجب والأقنعة ، أن تتغلغل النظرة من السطح إلى الأعماق . إذا كان لا فهم

أولا فلا لذة لشيء من بعد ، أو هي لذة الحمقى والأدعياء والمخدوعين .

وقطع تأمل صاحبنا صوت الشيخ الهرم صاحب القارب وهو يقول لهم :

— انتهت الساعة المتفق عليها ، فهل تريدون ساعة أخرى أم نعود للشاطيء ؟ هذه هي المسألة !

(« المساء » ، ١٩٦٢/٣/١٩ ، ص ٨)

٣

هذا الجمهور

في روما قبل الحرب ، في كازينو الورود ، في حديقة فيلا بورجيزي خارج بوابة بنشانا ، جلست ذات ليلة من ليالي الصيف بين جمع خليط من الناس أمام مسرح صغير يعرض عليهم وهم يحتسون المرطبات ويثرثرون ضروباً خفيفة من فنون الرقص والغناء والفكاهة والبهلوانية ، جمع أنيق الملبس ، خافت الصوت ، مهذب الإشارة يلتمسون النسيم واللهو والسعادة ولو من خرم إبرة ..

وتوالت فقرات البرنامج ، لم يبخل الجميع عند نهاية كل فقرة بتصفيق هو مرة حار ملح يعبر عن الإعجاب ويطلب التكرار وينا له، وهو مرة موجز فاتر يدل على أدنى رغبة لبراءة الذمة ..

قلت لنفسي : ما أسهل الكرم على السعداء إنهم جاءوا للتبشير

بالمرح لا بالغم. لايعبأون أن تحيات وانجذابات الفنانين لهم متساوية عند التصفيق الحار والتصفيق الفاتر ، بل لعل الجمع قد لحظ بشيء من السرور والفكاهة أن من نال التصفيق الفاتر كان أشد مبالغة فى شكرهم ممن نال تصفيقهم الحار لابأس . . المهم أن يرتشف أبناء الليلة كلهم من يد أمهم أكواباً مترعة بالخدر والهناء . .

والظاهر أن الجمع كان قد بلغ فى أحضان النسيان ذروة المرح ، وخلى المجال لدبيب الطفولة تغزوه شيئا فشيئا حتى تماكنه فى غفلة منه ، تقطع هدوءهم طعنات من ضجة لاتزال مهذبة ، شق الفضاء رنين بعض الضحكات ، فقدت الجلسة فى المقاعد اطمئنانها ، وزاد تلفت الناس بعضهم لبعض ، حتى الجرسونات بعد الاحترام رفعوا الكلفة بينهم وبين الزبائن ، يحومون خلال الموائد والأكواب ثابتة فوق صوان مائلة متأرجحة على قاعدة ضئيلة من أصابع يد واحد مرفوعة فوق الرءوس ، أصبح مشيهم تقليدا من بعيد للراقصين والبهلوانات :

● الزمن يسرقه

وشاء سوء الحظ — وليالى السعادة لاتخلو من ساعة نحس — أن تكون الفقرة التالية من نصيب رجل متعوس ، لو قدم فقرته فى

أول السهرة لمر مرور الكرام ولكن شاء قدره الأسود أن تؤخر إلى أن بلغ المرح ذروته .

ظهر لنا على المسرح رجل شيخ فى بذلة مفصلة من رقعة الشطرنج. يدير بين يديه قبعة صلبة مستديرة كأنه أخرجها من تحت سرير ، حيا الجمهور تحية نبيل لسيدة جميلة جالسة فى صالون ، كان هو وحده الذى توجه للأوركسترا بإشارة رشيقة من كفه المبسوطة يلتمس منه أن يتفضل عليه ويبدأ بالعزف ، هذا هو شأن الرجل المهذب .

لم يكد الأوركسترا يبدأ العزف حتى اتخذ الرجل وقفة مسرحية وفتح فمه وانبعث من حبال حنجرته الجافة صوت أجش حاد بأول مقطع من أغنية قديمة تندب فيها فتاة بلهجة إحدى المقاطعات خيانة حبيبها لها ، هى معروفة فى إيطاليا بأنها أكثر الأغانى الشعبية قدرة على إسالة الدموع ، وكان للرجل شهرته فى إنشاد هذه الأغانى الشعبية يجوب بها إيطاليا من الشمال للجنوب ، وله اسطوانات عديدة ، لم يشعر فى رحلاته الطويلة أن الزمن يسرقه ، فلما عاد للعاصمة كان فعلا ماضياً لا مضارع له :

وقبل أن يفرغ الرجل من المقطع الأول من أغنيته انقلب الجمهور فجأة إلى وحش غريب لا يعرف قلبه الرحمة . اختفى الجمع المهذب واختفى معه كرمه ، كان لقاء الأغنية عنده أن ارتفعت ضحكات الاستهزاء والسخرية من كل جانب : من بينها أصوات تقلد مواء القطط . للجمع كله حلق واحد انبعث منه دوى كالرعد يريد أن

يخنق صوت الرجل ويفسد عليه فقرته ، لا فرق في الهجوم عليه بين رجل وامرأة ، وبين شاب وشيخ .

استبدت بالمكان كله فوضى تشيع مرحا هداما له نسب قريب بشيطنة القرود ، الجالس ينظر إلى وجه زميله فحين يراه يشارك في هذا الهجوم بضحكه وهتافه ودق أقدامه على الأرض يزداد مرحه هو ضعفين . منظر الفنان يضحكه ومنظر زميله يضحكه ، وسرت العدوى بين الجميع وهم يرفعون بعضهم بعضاً درجة بعد درجة في سلم الهياج والفوضى والمرح والقسوة ، وجوه الجرسونات متميزة عن الجمع ارتسمت على شفاههم ابتسامة تجمع في وقت واحد بين الملق والرثاء ، الملق للجمهور ورثاء لضحيته ، فهو مثلهم أجرى يعول أسرة ورزقه يوم بيوم .

انقطع الرجل عن الغناء وظن الجمهور أنه قد انتصر فهدأت الضجة وتريثوا لكي يروا كيف ومتى تكون لحظة انصرافه وأعدوا له في أنفسهم أقبح تشييع . ولكن الرجل ظن أنه قد واتته هدنة ينبغي له انتهازها ليحاول اقناعهم مرة أخرى أن أغنيته شيء عظيم لم يلتفت للاوركسترا كعادته ، بل بدأ يغني المقطع الأول من جديد ، فلحق به الاوركسترا ليسعفه .

انقلب مرح الجمهور إلى حنق ، إنه لا يحب عصيان أوامره ولا الأغبياء الذين لا يفهمون ، بدل الضحكات صدرت أوامره عديدة من كل جانب تصرخ للرجل « كفى كفى . أخرج

اخرج » . . فهم الرجل وأشار بيده إلى الجمهور مستأذنا أن يسمح له بكلمة ، فلم ينلها إلا بعد عناء ومفاوضة ، قال لنا بصوت متهدج :

— سادتى ! ماذا عليكم لو سمحتم لى أن أتم أغنيتى ، إننى أرتزق من هـــذه المهنة وليس لى غيرها ، كونوا كرماء واتركوا ليلتى تعدى على خير .

لم يدر الرجل أنه بهذه الكلمة قد انتحر ، إن كان يظن أن قد بقى فى قلب الجمهور ذرة من الرحمة فقد أضاعتها هذه الكلمة ، ولم تكن تضيعها إلاها ، إذا كان يريد الاستجداء فليخلع بذلة الفنان ويقف أمام باب كنيسة وفى يده صندوق كرتون به نصف دستة من علب الكبريت ، ضاق الجمهور به ذرعا ، هذا رجل ثقيل يجثم على صدره ، فلفظه لا بأصوات الاستهزاء والسخرية بل بهمهمة ، لا شىء ينطق مثلها بالتأفف والاحتقار .

● اننى فنان

ذكرى تلك الليلة البعيدة نبشها من أعماق نفسى استماعى أخيرا « إلى مجلة الفن » فى البرنامج الثانى — جزاه الله خيرا —

امتعنى بحديث على لسان بولدينو الرسام الإيطالى الذى نال جائزة البينالى فى أمريكا منذ سنتين ، هو يشغل منذ ربع قرن منصب معلم الرسم فى مدرسة صغيرة بمدينة بولونيا ، لم يتحول عنها إلى اليوم رغم الشهرة الفائقة التى واتته بعد صبر قنوع ، لم يسع إلى ترقية ولم يتعارك من أجل درجة ، بل رفض أن يأبى نداء عشاقه للذهاب إلى العاصمة لتسطع عليه الأضواء ويتنقل بين الصالونات وتفترسه نساء المجتمع الراقى ويدلى بأحاديث ويرى صورته فى الصحف والتليفزيون .

إنه الأعزب العزوف آثر أن يبقى فى منصبه الصغير وفى داره المتواضعة وفى بلدته النائية ، يقفل الباب على نفسه وعلى شقيقات له هن عوانس أيضا ، إنه يكره رسم الأشخاص وإنما همه الأوحد أن يتأمل فى العزلة والسكون الشامل بعض الأشياء الجامدة التى تحيط به ، كالقنينات مثلا ، فإذا ألفها وألفته وسمها فبدت فى لوحته كفينوس خارجة من أعماق البحر تكشف لأول مرة أسرارا تشهق لها الصدور .

إنه لا يسعى قط أن يحشر نفسه بين الفلاسفة ويحاول أن يعطى لرموزه تعبيرا ميتا فيزيقيا ، بل غرضه الوحيد أن ينطق إيماءة الشىء الجامد بحياته فى الكون و بمعان كامنة فى خلقته لا تكاد تفترق عن المعانى الانسانية . التأمل والفهم والتعبير فى دائرة ترسمها البساطة والتواضع والخشوع ، قيل له إنك تبيع لوحاتك بثمن بخس فيبيعها المشترى سريعا بثمن باهظ ، أجاب : إننى فنان ، ولست

بتاجر وإنني أرسم لنفسي لا لأحد ، وكل متعتي أن أجد اللوحة رضائي »

● ماذا جرى لك ؟

وتلا الحديث عن هذا الرسام حديث آخر عن شارلي شابلن، كيف كان لا يستمد الفكاهة إلا من ينبوع نفسه وحدها وهو ممثل مغمور ، فلما اندلقت عليه الشهرة وأطبق الجمهور عليه باعجابه وأخذه في أحضانه المسكرة بدأ يفكر في استرضاء هذا الجمهور ويقدم له مايظن أنه يرضيه سواء رضي به أم لا فإذا به يتلقى من رجل مجهول رسالة يقول له فيها :

— ماذا جرى لك ؟ إن فكاهتك الآن أصبحت مفتعلة ، بائخة مبتذلة فعد إلى سابق عهدك .

قال شارلي إنه فهم الدرس وعاد إلى نفسه ونسي الجمهور ، فكتب لفنه البقاء بعد أن كان مهددا بالانهيار ، ثم أضاف شارلي هذه الكلمة الغريبة :

إن الجمهور يحب الاستعباد .

● الفنان والجمهور

ذكرياتى وهذه الأحاديث حملتنى على تأمل العلاقة بين الفنان والجمهور ، لا شىء فى الدنيا يعادل سعادة الفنان الصادق بفنه وحده مستقلا عن كل جزاء سواه ، ولكن لاجدال أن هذه السعادة بذرة فيها كل أسرار الشجرة وجمالها وأن الفنان لن يرى ورقها وأزهارها رأى العين إلا إذا أحس بتجاوب روحى بينه وبين جمهوره .

ما أقسى مأساة الفنان الذى يسرقه الزمن وتبور بضاعته لتبدل أذواق الناس فى جيل غير جيل ، الجمهور يصبح عدوا لا يرحم كما رأيت من ذكرياتى ، وينبغى ألا نكذب على أنفسنا بل نقر أنها مأساة مؤلمة أيضاً ألا يلقى الفنان تقديراً إلا بعد موته ، لأنه كان على خلاف الفنان الأول يسبق جيله .

ولكن مع الاعتراف بهذا التجاوب الروحى بين الفنان والجمهور وأنه حقيقة واقعة ، وأنه صلة فيها زكاة لافقر ، أقول إنه لا نجاة للفنان إلا إذا احتفظ مع ذلك باستقلاله و نفى عن الجمهور صفة الصنم المخيف الذى يطاف به ويعامل بحذر وتقدم له القرابين ، فإن

من شأن هذا المسلك أن يحل الرياء عند الفنان محل الصراحة ، والطقوس محل التقوى والتخشب المراسيمى بدل الرقص ، واللفظ الأجوف لأنه زنان محل النجوى والهمس .

وينفى الفنان أيضاً عن الجمهور صفة الصديق الذى يعامل بمجاملة ورفع كلفة وأمل فى الصفح عند الخطأ ، « فإن من شأن هذا المسلك أن يتصف الفنان بالحماقة ويسهل عليه أن يهبط من الأحسن إلى الحسن ، ويطغى عنده الاستهتار شيئاً فشيئاً ويحل محل الإعزاز ، ولو فعل ذلك لا يلومن إلا نفسه إذا انقلب ود الجمهور إلى ملل وصدود ، إن استرجع الماضى فان يذكر عن صديقه المنبوذ حسناته بل سيئاته .

نجاة الفنان أن يكتفى بوضع الجمهور موضع المرآة ينصبها أمامه . كل عملها أن تعكس له نفسه هو دون أن يفتتن بهذه النفس كنرسيس (١) ، فالتجاوب بين الفنان والجمهور هو فى حقيقة الأمر تجاوب بين الفنان غير الواعية التى تملى عليه ونفسه الواعية التى يحدد الجمهور بعض ملامحها .

لذلك فأنا لا أحب كلمة شارلى أن الجهور يحب الاستبعاد ،

---

(١) بطل : أسطورة يونانية قديمة عاقبته الآلهة بايقاعه فى حب صورته المنعكسة على صفحة الماء حتى أغرق نفسه ، فحولته الى زهرة نرجس ؛ واسم الزهرة مشتق من اسمه ؛ والنرجسية فى علم النفس التحليلى تشير الى مرض عشق الذات :

هذا اعتقاد ضار بالفنان ، لأنه هو أيضا يخرج الجمهور من دور المرآة إلى دور المطية .

● لماذا تخلف الفن عندنا ؟

ويخيل إلى أن من بين أسباب تخلف الأدب والفن عندنا هذه العناية الفائقة باسترضاء الجمهور والجرى وراء أهوائه ؟

أحب أن يتأمل القارىء لنفسه بنفسه كيف يدب الخداع والكذب فى المؤلفات التى تسعى وراء استرضاء الجمهور ، وقد ظهرت هذه العلة بوضوح فى فن السينما إذ هو الذى غالى كثيرا فى الجرى وراء الجمهور وتملقه وقد تحقق فيها ما قلته عن انقلاب ود الجمهور إلى ملل ثم إلى استهتار كاد ينقلب إلى صدود .

والخطر الأكبر أن الذين يسعون لاسترضاء الجمهور يؤمنون أولا أشد الإيمان بأن هذا الجمهور سريع النسيان .

(« المساء » : ١٩٦١/٤/١٣ : ص ٦)

اعترافات لاتقال إلا للصديق

كنت في مطلع شبابي وأنا أحاول كتابة القصة القصيرة لا أتناول مجلة انجليزية إلا وجدت فيها إعلانا يشغل صفحة كاملة، على رأسها إلى اليسار صورة رجل بشوش صارم معا ، تشير ذراعه الممدودة — وإن لم يركب جوادا — بإصبع ابراهيم باشا فى ميدان الأوبرا إلى عنوان مكتوب بأحرف غلاظ مصطفة كالمتاريس : « لماذا لا تصبح أنت أيضاً كاتبا قصصيا ؟ » وينتهى العنوان بعلامة استفهام لها شكل بريمة زجاجة تنخر فى الذهن لا فى الفلة المحشورة ، وتحت العنوان سطر آخر بأحرف أدق وإن تكن أشد سوادا : — تعلم كتابة القصة وزد من دخلك ! » وينتهى السطر بعلامة تعجب كأنها جندى فى طابور تمرين حين يصرخ فجأة الجاويش المعلم أبو شوارب « قف » ، فالنقطة التى تحت العلامة

هى خبطة القدم على الأرض ، ثم يأتى بعد ذلك بأحرف منمنمة كلام حلو من فم هذا الرجل الصارم البشوش ، إنه لا ينتظر إلا إشارتك « وشيكا » بمبلغ ثلاثين شلنا دفعة أولى حتى يرسل إليك ، أيا كان عمرك أو جنسك أو ملتك أو مكانك فى الأرض ، وبالبريد المسجل أول درس فى كتابة القصة . .

وفى أسفل الصفحة إلى اليمين – كما يقتضى التنسيق فى فن الاعلان – صورة أخرى صغيرة هذه المرة . فالناس مقامات وشتان بين القطب والمريد – هى لشاب عيونه مفنجلة ، يقول عنه أبو إصبع أمامه لا من وراء ظهره ، إنه كان مخلوقا مضيعا فى الحياة ، مغمورا لا يحس به أحد ، يعمل صبيا فى دكان بقال ، وقاده حسن طالع لا يرزقه إلا من كان له بصر وإرادة وهمة إلى الرد على الإعلان وإرسال الشيك فانقلبت حياته رأسا على عقب ، وأصبح فى فترة وجيزة يكسب كل شهر خمسين جنيها من تأليف القصص ، ولكن الأستاذ لا يذكر لك أين ومتى نُشرت هذه القصص . وصورة التلميذ تتغير عددا بعد عدد ، هى تارة لفتاة تبتسم ، وتارة لشيخ مغضن الجبين ، هل بعد هذا دلالة على نجاح المدرسة ؟

* * *

وكنت حينئذ شغوفا بالقراءة لا يشبع لى نهم حتى أتلفت بصرى ، أقلى أغلب المجلات ولكنى مع الأسف لم أعثر رغم طول البحث وشدة الشوق على اسم ولو لواحد فقط من هؤلاء

الكتاب الكبار خريجي تلك المدرسة ، والعجيب أن أهم سبب جعلني أشم رائحة المشمش في هذا الإعلان لم تكن مبالغته وزرعه «لو» في أرض «ليت» بل هو الطريقة التي طبعت بها صورة الأستاذ كالشأن بالمجلات والصحف في ذلك العهد ، فهي تخدع النظرة الأولى بأنها صورة من فعل قلم ولكنك إذا تأملتها وجدتها مرسومة لا بخطوط ولون متصل بل هي مؤلفة من نقط سود منفصلة متلاصقة عديدة كبرادة الحديد ، ورغم تلاصقها فقد بقي البياض المخنوق يتنفس من تحتها ، إذ خيل إلي منها أن القصور العلالي في دماغ هذا الأستاذ مبنية هي الأخرى من قوالب منفصلة مرصوصة بدون «مونة» وأنني لو لقيته وجها لوجه وصافحته سأجد شخصه المهيب يتفتت من اللمسة وحدها ويخر على الأرض كوما من الرمال .

ومع ذلك اعترف لك أنني هممت مرارا أن ألتحق بهذه المدرسة ، فقد كان للاعلان سحر شديد لنفسي ، أكاد من صورة الأستاذ ونظراته وكلامه أنام نوما مغناطيسياً ، ولم يمنعني عنها إلا أنني كنت أغلب الوقت لا أحتكم على ثلاثين شلنا دفعة أولى ، وحتى لو كنت أملك مائة وخمسين قرشاً لعجزت عن تحويلها بشيك في بنك ، فأنا من اشد الناس كرها للطوابير ، وأضيعهم وأضيقهم صدرا أمام نوافذ تحجب الصوت لا البصر ، لها فتحات مستديرة في حجم غويشة من الزجاج لا تتسع إلا لمد يد متلصصة كيد النشال ، أو مستجدية كيد الشحاذ ، أو شرمة خطافة كمخلب حدأة ، وكنت أعيش حينئذ

فى دمنهور فما عرفت رغم امتداد إقامتى فيها هل فيها بنك أم لا ، وإذا كان بها بنك أين موقعه .

نعم ، كنت أهم بدخول هذه المدرسة رغم العوائق ، لاحبا فى كسب خمسين جنيها فى الشهر . لاتظننى أمعر عليك وأتصنع العفاف والقناعة ، وأنا أعرف أن القناعة عندك من مرادفات الخيابة ، وإنما أقول لك الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ، ولك أن تصدقنى أو لاتصدقنى : لم يكن مطلبى ومناى إلا أن أجد من يأخذ بيدى ويفتح بصيرتى حتى أهتدى وأنا وحيد أضرب فى بيداء أحس بجبالها المذهل واتساعها المخيف وسرابها الخادع وتخبطى بلا بوصلة وليس لى نصيب من علم النجوم ، والرياح الهوج تناوشنى وتنازعنى ملابسى ولحمى وروحى .

وكنت أطوى المجلة على الإعلان وأبقيه مدفونا كبقية أسرارى ومع ذلك ظل يلاحقنى ليالى عديدة . سميرى هو الأرق لأنى أعذب نفسى قبل النوم بسؤال عجيب عن « لو فتحت مدرسة مماثلة فماذا كنت تقول فى دروسك ؟ » . اضحك ما شئت من التلميذ الخائب الذى يريد أن يقفز فى غيبة الأستاذ إلى مقعده ، ولكن لم يكن الأمر كذلك ، إنما كان هذا السؤال أول همس من نفسى يفتح لى باب قصة أحببت كتابتها تدور حول حياة رجل كصاحبنا ، أصف فيها ما يلقاه من مفارقات فى إجابات تلاميذه وأقيم منهم مظاهرة كبيرة أمام داره تطالبه برد المصروفات لأن المدرسة

أونطة : واجعله يكتب دروسه ويرسل باسم مستعار قصصاً يؤلفها طبقاًنهجه إلى جميع المجلات فتعيدها إليه باعتذار رفيق وتنصحه بأن يقرأ الإعلان المنشور فى صفحة كذا بمجلة كذا ، فيسارع إلى المجلة المذكورة ويفتحها على الصفحة المطلوبة فإذا به يجد إعلانا من مدرسته هو . . . ولكنى لم أكتب هذه القصة إلى اليوم ، وضاعت كآلاف الأصوات الهامسة التى لاحقتنى ولم ترق إلى درجة الإفصاح .

وهنا يخيل إلىّ أنك ستهجم علىّ بسؤال أعجب هو «الآن وقد بلغت بداية نهاية عمرك ووجعت دماغنا هل تستطيع الإجابة على سؤالك السابق الذى كان يؤرقك ؟ » .

دعنى أحك رأسى قليلا قبل أن أحاول إجابتك إلى طلبك ، جبرا بخاطرك وإعفاء لك من كسوفك ، ثم أقول لك إننى لو فتحت الآن مثل هذه المدرسة لجعلت الإعلان ترجمة حرفية للنص الانجليزى — من قبيل الاقتباس ! فقد ثبت نجاحه وليس أهلنا عقدة من العقد حتى يخيب فيهم أثره ، أما رأس الإعلان فلن أجعله صورة أستاذنا القديم مع اعترافى بمكانته فإنها لن تنطلى على أهل بلدنا وسيدركون من أول نظرة إنه إنجليزى أزرق الناب ، وإنما سأذهب إلى قلم السوابق وأفتش فى البومات كبار النصابين عن صورة تترجم إلى العربية سحنة الأستاذ الإنجليزى فأنا واثق أن سحرها المزدوج لن يقاوم ، أما عن صور التلاميذ

فسأحاول أن أشترى بالأقة دشت الأبونيهات المستهلكة من شركات الترام والأتوبيس . وإذا وقع الفاس فى الراس وجاءت ساعة الجد وجلست فى خلوة أكتب المنهج فسأختصره كله فى درس فرد ، والدرس اليتيم فى جملة واحدة صغيرة هى من ثلاث كلمات عند عامة الناس بل من كلمتين إن أردت أن ترسل بها برقية ، هذه الجملة هى « خليك بنى آدم ».

فإذا جاءنى تلميذ يقول لى إننى ضحكت على ذقنه ، وأنه ليس فى حاجة إلى مدرستى لسماع هذه النصيحة ، وأنه ليس مغفلا حتى يدفع ثمنا لها ، فإنه يجدها أكثر من مرة مطبوعة على ورق شفاف يغلف قطعة من الشيكولاته أم بخت ، وأنه لو أراد لمضغها وبلعها أيضا لتستقر فى جوفه وتسرى فى دمه وينجح مفعولها الأكيد كما كانوا يأكلون قلب الأسد طلبا للشجاعة ، إذا جاءنى تلميذ بمثل هذا الكلام فسأقول له من فورى :

« يا جاهل ! ألا تعلم أن أعقل العقلاء هو من يبيع للناس حكما سقطت من جيوب الأجيال السابقة وبقيت ملقاة فى عرض الطريق عارية سافرة تدوسها الناس بالأقدام فى غفلتهم ؟ إن مدرستى ليست مفتوحة للغشم الخيب الوقحاء الجهال أمثالك ، ها هو ذا أول قسط أعيده إليك وأرنى عرض أكتافك . أنت مرفوت لفرط الغباء وقلة الذوق وسوء الأدب وإذا لم تنصرف فسأنادى بوليس النجدة . طبعا أقول له هذا التهديد تهويشا لأننى أحرص كل الحرص

على أن لا يعرف رائحتى لا البوليس ولا الدبان الأزرق » .

أما التلميذ الناصح الواعى الذى يصيح كتكوته من البيضة فسيدرك بلا عناء أنه تلقى منهجا كاملا ويظل مواظبا على دفع الأقساط الباقية فى مواعيدها سيتأمل الكلمات الثلاث ويعلم أننى ألقى عليه عبئا ثقيلا وأطالبه بشىء عسير جسيم ، إنه امتحان لا ينجح فيه الكثيرون فأنا أريد منه أن ينتفع أتم انتفاع بكل ما وهبه الله لبنى آدم ، من بصر وسمع وشم وذوق ولمس ، ومن عقل كالجوهرة ، وروح هيهات أن تفنى إذا بلى الجسد ، فلا تكون مقلته مرآة صدئة بكماء ، الصورة التى تسقط عليها كأنما تتعثر بها ولا تجد من يلقطها ، وتبقى لزجة أو باهتة أو مشلولة ، بل يترك عينه التى خلقها الله له تعمل عملها على سجيتها إنها عدسة سحرية مستوية لا محدبة ولا مقعرة شأن مرايا حدائق الملاهى .

هذه الكرة الضئيلة الرجراجة التى تفقؤها إصبع طفل قادرة على أن تمده بضوء لا يقل من ضوء المصابيح الكشافة للطائرات أو أسعة إكس ، سيرى بفضلها الأشياء رؤيتين : الأولى وهى منفصلة كأن ليس فى الوجود أحد غيرها ، والثانية وهى مرتبطة بملايين روابط القربى والنسب لكل ما يحتويه هذا الكون من حىّ وجماد ؛ وسيراها ثانية على طريقة أخرى مرتين : مرة وهى مخلوقة وليس الزمن من عناصرها ، فتنطق له بالسر الذى

أودعه الله فيها ، ومرة وهى أسيرة فريدة فى يد الزمن ، قد لصق بها عديد من الظلال العابرة تحجّرت فى تفسير لفظى لها فى قاموس ، فإذا جاءته الصورة بعد ذلك منبعجة أو مقعّرة وجدت عنده مع ذلك استواءها بفضل هذه النظرة الشاملة ، حينئذ لن يجد بين نقوده درهما دميا يناوله أويتناوله ، وسيستوى فهمه شيئا فشيئا حتى إذا بلغ درجة الصلح والتسامح نضُج .

وكما يفعل بعينه يفعل بأذنه ولسانه وأنفه وكهرباء جلده ، ثم يصون عقله عن السموم ويفتح جميع نوافذ روحه ، ولو دخلتها الزعابيب والأعاصير ، سيعلم التلميذ الناجح أن مدرستى تُعنى بالفنان كانسان قبل أن تعنى بما يكتبه .

* * *

يرجع مرجوعنا إلى سيرة المدرسة الإنجليزية التى سحرتنى فى مطلع شبابى فأعترف لك أنى تجنّبت هذه المدرسة تجنب السليم للأجرب ، كما تجنّبت فيما بعد — بالسليقة لا بنصح من أحد — جميع المؤلفات التى تعالج صنعة القصة وترسم لها الحدود والأهداف وتضع القواعد والشروط وتستخدم مصطلحات كثيرة كأننا فى هيكل ماسونى ، صوت هامس داخلى يستعطفنى : « أرجوك أن تتركنى فى حالى ، أنا خائفة من هـــذه الحكمة كلها أن تفسد علىّ أخلاقى وأحلامى وطريقة لعبى» فأقول لها : «وتفضح جهلك وإفلاسك ؟ » فتجيب : « لو شرحت للبهلوان وهو فوق الحبل نظرية التوازن لسقط على الأرض واندقت عنقه » .

وأحمد الله أنه ألهمنى فى سن مبكرة أن الفن فوق ووراءه جميع الآراء والنظريات ، وأنه خارج عن جميع التعاريف المانعة الجامعة ، وأنه لايعرف وصولا إلى نهاية ، وأن لا فن بلاصنعة، ولكن الصنعة فى الفن هى أيضا فن ، وأن قشور الصنعة قد تنال بالتعلم أما روحها فهى روح الفنان ذاته ، وأن المسألة كلها هى هل أنت غنى أم فقير .

شبهّت كل المؤلفات التى تعلم صنعة القصة بتلك الآلة اللامعة بالورنيش التى تشتريها لتعرف بها فى حجرة نومك لذّة التجديف ونفعه ، ليست جرادة كبيرة من خشب وحديد ، بل هى قارب من صلب ، قارب به مجدافان عفيان ومقعد صغير يتحرك . فماذا ينقصك ؟ اجلس داخله وازحف بالمقعد إلى الأمام إلى أن تقرفص وتزغزغ ركبتاك بطنك، ثم تمدّد به إلى الوراء حتى تكاد تستلقى على قفاك وان لم تضحك ، ثم ادفع المجدافين عكس طريقك وأنت حرّ ، فإما إلى النافذة المفتوحة (فقد أوصوك بالهواء الطلق) ومنها إلى الطريق من رابع دور ، وإما إلى الحمام مارّا تحت منضدة الأكل كأنها كوبرى ، وإذا ضربت معك الخمة فارجع إلى سلسلة الصور فى الكتيِّب الأنيق الذى دسّه البائع فى يدك كأنه وَصفة تُعالج كل الأمراض يُحاط سرّها بالكتمان إلا للأعزّاء ، ستتمشّى فى عضلاتك كل حركة التجديف ، وقد لا يختلف خطوك بعد التمرين إلى الحمام والفوطة حول رقبتك ، وظهرك محنى ، وذراعاك مقوستان ورجلاك معصعصتان عن جرى

أعضاء النادى من القارب للدوش ، فماذا تريد فوق كل ذلك ؟

ولكنك مع الأسف لو وضعت هذا القارب فى الماء لاعلى البلاط لغرق من فوره ، أين أنت — ولا مؤاخذه — من راكب النهر ، أسلم نفسه للكون ، انهدمت بينهما الحواجز ، النسيم الرفيق المداعب يجلو صدأه ، والماء يقرع الخشب يحدثه بلكنته ، وهل ينطق من فى فيه ماء ؟ — والشاطئ يتبختر أمامه ويفتح له صدره ؛ والسماء تبصره بود وتتجاهله ببرد ، والألوان والخطوط تنطق له ، وهذا الصمت العميق الذى يتسرب إلى روحه رغم الآلاف من أصوات الأحياء والجماد بعيداً حواليه .

* * *

لم أقرأ هذه المؤلفات فى صنعة القصة وفضلت أن أتعلم — كما يقال — من منازلهم ، بالمعاناة والتجربة وتأمل آثار كبار الكتاب ، هم أساتذتى وأئمتى وأحبابى .

(« المســاء » ، ١٩٦١/٣/٥ ، ص ٦)

فهـــرس

(١)

سيداتى ، آنساتى	٧
أنا خرمان	١٦
أين تأكل اليوم ؟	٢٣
الوصايا العشر فى سوق الخضار	٣٠
حجاب لدوام المحبة	٣٧
يا أولاد الحلال	٤٧
مطاردة المتسولين	٥٢
تاريخ من نوع جديد	٥٩
أنا والنسيان ودواه	٧٠
أى حاجة	٨٢
فرنكة وقلة بركة	٨٩
حكايات تريح القلب	٩٧
الى أصدقائى السياح	١٠٥

(٢)

البلطة والشجرة ١١٥
الحكاية وما فيها ١٢٥
فضائل فى الثلاجة ١٣٧
الصنف المطبق ١٤٣
بينى وبين صديق ١٥٠
خرج ولم يعد ١٥٥
سبعة فى قارب ١٦٤

(٣)

هذا الجمهور ١٧٣
اعترافات لا تقال الا لصديق ١٨٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٢٦٨٧

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٠٥٧ ٧